الإيمان
و
الإسراء
و
المعراج

سعيد محمد حسن

الطبعة الأولى

١٤١٥ هـ - ١٩٩٥م

بسم الله الرحمن الرحيم

إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت

وما توفيقي إلا بالله

صدق الله العظيم

مقدمة

يحتوى هذا الكتاب على محاولة مخلصة - وأزعم أنها جادة وواعية - لتحديد الأسباب التى فرضت الإسراء بمحمد ﷺ والعروج به .

ولقد فرغت من كتابته تحديداً منذ عشرين عاما ، لكن الأمر اقتضى التمهيد له بدراسة عن حدث الإسراء والمعراج ذاته (حقيقته والآراء التى دارت حوله) وأثناء إعدادها تبين أنها تحتاج إلى مقدمة ، لكن المقدمة فرضت نفسها فصدرت فى أوائل عام ١٩٧٦ فى كتاب مستقل تحت عنوان (رأى فى الفكر الإسلامى) ثم تبعتها الدراسة فى أواخر عام ١٩٧٧ تحت عنوان (حقائق الإسراء والمعراج) .

أما مسودات هذا الكتاب فقد توالت عليها تداعيات الحياة وتراكماتها فتوارت طوال أربعة عشر عاما حتى اندثرت وأصبحت نسياً منسيا . . وكان المقدر أن تبقى كذلك ، لكن شعاعاً حانياً سطع فجأة ، أزاح غيوم الإحباط والرتابة والملل ، فكان بعض الأمل ، وكان قليل من العزم الذى انتهى - بتوفيق من الله - إلى انتشال هذا الكتاب من تحت الأنقاض .

وفى الجـزء الأول (رأى فى الفكر الإسلامى) أوضـحت - فى دراسة نظرية - كيف ومتى أصيب المسلمون بالعقم وبالجمود الذى انتهى بهم إلى ماهم عليه الآن من تخلف وضياع .

وفى الجـزء الثانى (حـقائق الإسـراء والمعراج) قـدمت الدليل العملى - على مـا سلف - فى دراسة موضوعيـة لحدث الإسراء والمعراج مـن خلال تناول المسلمين له ، ونظرتهم إليه طوال أربعة عشر قرنا .

أما هذا الجزء الأخير فإنه ، وإن اسـتهدف تحديد الأسباب التى فرضت الإسـراء والمعراج ، إلا أننى أردته - ترتيبـاً على الجزأين السـابقين - أن يكون نمـوذجـاً لما يجـب أن تسلكه الدراسـات الإسلامية لخدمة دينها .

.. هناك إذن ارتباط وثيق بين أجـزاء الكتاب الثـلاثة يحملنى على الاعتـراف بأن صدورها - على نحو مـا جرى - متفـرقة ، وعلى فترات متباعدة قد أضعف أثرها وبدد معظم الغاية المستهدفة منها .

والله أسأل أن يتـقبل مـا قدمت وما أخـرت ، لا بقيمـته ولا بأثـره ، بل بنيتى فيه ودوافعى اليه .

القاهرة - ديسمبر ١٩٩٤ .

سادت النظرة المادية خلال القرنين الماضيين وبرزت كحقيقة راسخة ، وشاع الرأى بأن على الإنسان أن يدرك أنه مخلوق بالغ الصغر يسكن كوكباً تافهاً يدور حول نجم لا شأن له . واستقر فى منظور العلم الحديث أن المادة وحدها هى الحقيقة ، وأن الكون قد نشأ بالصدفة ، ومن ثم فليست هناك حكمة وراء الأشياء ، وأن العقل ذاته ليس إلا نتاجاً ثانوياً لنشاط خلايا المخ .

وطبقا لتلك النظرة أو النظرية فإن تفسير تصرفات الإنسان لا يتم إلا فى ضوء قواعد الفسيولوچيا (علم وظائف الأعضاء) والكيمياء والفيزياء ، فالتغيرات المادية هى التى تسبب الأفكار لا العكس ، واستطراداً مع هذا التصور الذى يرى أن الفكر والإرادة ليسا إلا نشاطين من أنشطة الدماغ ، فليس هناك أدنى احتمال لإمكان استمرارهما بعد فناء الإنسان .

لكن كيف ينبثق العقل من المادة ؟

ذلك ما عجز علماء القرن التاسع عشر عن تحديده ، لكنهم علقوا الآمال - لإثبات ما لم يبلغوه - على التقدم العلمى المتوقع فى القرن العشرين ، بيد أن العكس هو الذى حدث .

فقد ثبت بالعلم التجريبى انفصال (العقل والإرادة) عن نشاط

خلايا المخ ، وأنهما بالتالى يمثلان جوهراً متميزاً ومختلفاً عن الجسم ، وأحد العلماء الذين بدءوا أبحاثهم لتثبيت دعائم النظرية المادية يقول :

« طوال حياتى العلمية سعيت جاهداً كغيرى من العلماء إلى إثبات أن الدماغ يفسر العقل ، وياله من أمر مثير ، أن نكتشف أن العالم يستطيع بدوره أن يؤمن عن حق بوجود الروح ،وإذا كان العقل والإرادة غير ماديين فلاشك أن هاتين الملكتين لا تخضعان بالموت للتحلل الذى يطرأ على الجسم والدماغ كليهما » (١)

فالخلاف حول ماهية الإنسان أوشك أن ينتهى ، فأغلب الآراء وأحكمها على أنه يتكون من :

مادة : هى ذلك الجسم المشاهد المحسوس الذى خضع منذ فجر التاريخ لمحاولات سبر أغواره وكشف أسراره ، فالبحث فى مكونات الجسم البشرى وفحص مركباته ليس فحسب نزعة إنسانية متقدة بل هو ضرورة ملحة فى ذات الوقت ، وقد تمشى القرآن الكريم مع هذه النزعة ودعا إليها فى آيات عديدة منها قوله تعالى :

«وفى الأرض آيات للموقنين . وفى أنفسكم أفلا تبصرون» (٢)

وروح : حجب الله عن البشر أسرارها واختص ذاته بعلمها . .

---

(١) من كتاب «العلم فى منظوره الجديد» سلسلة عالم المعرفة

(٢) سورة الذاريات - أية ٢٠ ، ٢١

قال تعالى «**ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا**» (١)

هذا الفصل بين الروح وبين مادة الجسم ليس فصلاً ميتافيزيقيا . . «فلو كانت الروح مظهراً من مظاهر الجسم لكان من الواجب أن تخضع هذه الروح لقوانين الزمان والمكان مثل خضوع الجسم لها . وحيث إن التجربة تثبت قطعياً أن هذا غير صحيح بالنسبة للروح دون الجسم ، فإن الذى لابد من قوله هو أن للروح وجود آخر غير الجسم مختلف فى نوعيته ومنفصل فى وجوده» (٢)

وعلى هذا الفصل - بين الروح وبين الجسم - تنهض فى الشريعة الإسلامية وفى غيرها عقيدة البعث والحساب ، لأنه لو كان صحيحاً ما يزعمه الماديون من أن الروح ليست شيئاً خارجياً وإنما هى إحدى صور النشاط المادى للتغييرات الكيميائية والفيزيائية لخلايا الإنسان ، وإنها كصفير القطار يلازمه دون أن يكون له تأثير على حركته ، لتعين التسليم بأن فناء الجسد بعد الموت هو الخطوة الأخيرة فى ملحمة الوجود الإنسانى ، ولسقطت بالتالى كل دعاوى المؤمنين عن الحساب الأخروى وعن الثواب والعقاب ، ولجرت معها كل قيمة أو معنى لحياة البشر ومعاناتهم .

---

(١) سورة الإسراء - آية ٨٥

(٢) من كتاب «الدين فى مواجهة العلم» لوحيد الدين خان - صفحة ٣ ، ٣٢

ولقد تـغيرت الدنـيا كثـيراً منذ أن تلى مـحمـد صلوات الله وسلامه عليه آية سورة الذاريات **«.. وفى أنفسكم أفلا تبصرون»** وآية سورة الإسراء **«.. قل الروح من أمر ربى»** مقرراً أنهما وحى من عند الله ، تضـاعفت قـدرات الإنسان ، وضـرب ببصره فـى الآفاق السحيـقة والأغوار البعـيدة ، وتمزقت الحجب والأستـار عن قدر هائل من المعارف التى يساند بعضها بعضاً ويكمل بعضها بعضاً ، وحقق العلم - كخطة القرآن - نجاحاً ملحوظاً فى مجال الإحاطة بجسم الإنسان ، فأصبح يعرف الكثير عن طبيعة أجهزته وعملها ، ووظائف أعضائه وتعاونها ، وتركيب أنسجته ومكوناتها ، وخلال البحث والنظر تحقق قوله تعالى **«وفى أنفسكم أفلا تبصرون»** فقد خر بعض العلمـاء سجـداً ، مقـرين أن هذا الإبداع فى الخلق وذلك التكامل فى التكوين لا يمكن أن يكون مجرد نتـيجة بلا مسبب أو توفيق دون منظم .

أمـا الروح التى تمتزج بهـذا الجـسد وتحـيط به إحاطة السـوار بالمعصم ، فـحتى اليوم لـم يفض تقـدم العلوم سرها ، ولـم تمس الاكتشـافات الحديثة ستـراً من أستارها مصداقـاً لقوله تعالى **«قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا»**

بهذا المزيج من الروح والجسد يتكون الإنسان ، وهو ينطلق فى الحياة مستعيناً بخمس حواس ، هى السمع والبصر والحس والشم والذوق ، ولكل حاسة مجال محـدد فى الإدراك ، فحاسة البصر

تدرك الألوان وحاسة السمع الأصوات ، وحاسة الشم الروائح ، وحاسة التذوق الأطعمة ، وحاسة اللمس درجات الحرارة والأنسجة والضغوط ، وفى حالات نادرة - كحركة بعض الأشخاص وسعيهم وهم نيام - تعمل تلك الحواس بتأثير غلبة الجسد المنتبه على الروح الغافلة ، وفى حالات كثيرة - كالأحلام- تعمل بتأثير غلبة الروح المنطلقة على الجسد الهامد . أما الأصل فى انتظام عمل الحواس وأدائها لوظائفها فهو اشتراك وصحوة مادة الجسم وروحه ، وفى ذلك يقول الإمام الغزالى فى تعريفه للروح «إنها جسم لطيف منبعه تجويف القلب الجسمانى ، فينتشر بواسطة العروق الضوارب إلى سائر أجزاء البدن ، وجريانه فى البدن ، وفيضان أنوار الحياة والحس والسمع والشم منها على أعضائها يضاهى فيضان النور من السراج الذى يدار فى زوايا البيت» (١)

وحواس الإنسان هى مراكز القوة والسيطرة فيه ، فهى أدواته التى يتلمس بها طريقه ، وآلاته التى يشق بها سبيله ، وإذا كان الحس هو أشمل وأعم تلك الحواس فإن أهمها وأخطرها هما السمع والبصر لما يتصفان به من بعد فى المدى ودقة فى الإحاطة، فالأذن تلتقط الأصوات القريبة والبعيدة ، الحاضرة مباشرة ، والماضية نقلا عن الآخرين ، والعين ترصد الأشكال والظلال والألوان حتى الأفق ، وحصيلة ذلك كله تستقر مترابطة فى الفؤاد

---

(١) إحياء علوم الدين . الجزء الثانى صفحة ٦

والمنظم لهذا الجهد هو العقل .

ولقد أتاحت الحواس للإنسان أن يتعرف على عالم مترام ، هو ما يطلق عليه (عالم الشهادة) أو دنيا الشهادة ، أى تلك الموجودات المادية التى يمكن أن نشاهدها بالعين أو نستدل على وجودها بأصواتها أو نلمس للدلالة عليها آثاراً معقولة ، فالوجود الذاتى أو الخارجى - بالنسبة للإنسان - لا يتحقق إلا عن طريق الحواس ، كما أن معارفه عن ذلك الوجود ويقينه بالنسبة لحقائقه ونواميسه لا يتم إلا باستعمال الحواس ، وبدونها لا يكون لدى الذاكرة ما تتذكره ، ولا للخيال ما يتصوره ، ولا للعقل ما يستوعبه ويفهمه .

وعلى قدرات الإنسان الحسية اعتمدت ونهضت العلوم المختلفة منذ القدم ، لكن العلم الحديث حول هذا الاعتماد إلى نظرية صماء ، فقصر وسائل البحث على المشاهدة والتجربة العلمية والاستدلال وأسقط بالتالى القدسية عن كل ما لا يمكن رصده سماعاً أو عياناً أو لا يتم الاستدلال على وجوده بوسيلة حسية .

وفى تقييم هذا المنهج فإنه يتعين الإقرار بأنه قد أدى للبشرية خدمات جليلة ، فقد أمكن عن طريقه تحقيق إنجازات ضخمة ما كان فى الإمكان بلوغها لولا الالتزام الصارم به ، فحواس الإنسان ليست مجرد وسائل لزيادة عناصر الاستمتاع والبهجة أو لتجنب العثرات والمهالك ، بل هى قبل ذلك سبيله الأساسى لاكتساب

العلم ولتحصيل المعرفة ولبلوغ اليقين .

ولا تعارض فى ذلك - بصفة عامة - مع مبادىء العقيدة الإسلامية ، بل إن تلك الخطة لتتفق تماما مع قوله تعالى **﴿والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون﴾** (١)

ولإيضاح ما جاء بالآية الكريمة نستعرضها مجزأة على النحو التالى :

والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا

وجعل لكم السمع والأبصار

والأفئدة

لعلكم تشكرون

ففى الجزء الأول والثانى بيان للقاعدة العامة فى الخلق وفى اكتساب العلم .

فى الخلق : يولد الناس بلا معارف ولا معلومات . . لا يعلمون شيئا .

وفى العلم : يكتسبونه عن طريق ما يرونه بأعينهم وما يسمعونه مباشرة فى حينه ، أو مما وقع فى أماكن أخرى وأزمنة سالفة ، فتتجمع المعلومات وتترسخ الحقائق لتسجل على صفحة الفؤاد .

---

(١) سورة النحل - آية ٧٨

لا بأس إذن على الإنسان إن هو أنكر مـا لا يقع عليه بصره أو يصل إليه مؤكداً خبـره . . فالآية الكريمة - من ناحية - تقرر أنه يكتسب معلوماته ومعارفه عـن طريق سمعه وبصره ، ومن ناحية أخـرى فإن القـرآن الكريم وهو يستـحث البـشر على الإيمان قـد حرص كثيراً على مخاطبتهم بـ **«أفلا تسمعون»** و **«أفلا تبصرون»** وإذا كان قد خاطبهم كذلك بـ «أفلا تعقلون» و «أفلا تتفكرون» فالواقع أن ذلك إنما يرد فى مرحـلة تالية ، فنحن لا نستـطيع أن نعقل أو نتـدبر إلا بعـد أن نلمس أو نسـمع أو نرى ، وبذات المنطق فـإن الشكر الذى تشير إليـه الآية الكريمة فى ختامهـا لا يتحقق إلا فى مرحلة أخيرة ، يسبقها إطالة النظر وإصاخة السمع حتى نعلم من خلقنا فأحـسن صورنا ، ومن أسبغ علينا نعـمه ظاهرة وباطنة ، فتلهج ألسنتنا حـمداً له وتسبح جوانحنا شكراً له . فـقوله تعالى فى سـورة النحل **«والله أخرجكـم من بطون أمهاتكم لا تعلـمون شيـئا وجعل لكم السـمع والأبصـار والأفئدة لعلكم تشكرون»** هو بمثابة قاعدة عامة تحـدد فى تعبير محكم سـبيل الإنسان لاكتسـاب المعرفة فى إطار ما تتـيحه حواسـه من قدرات ، والنهج الذى رسمـته الآية الكريمة يتفق بصفة عامة مع النظرة المادية المستقرة فى مجال العلوم الحديثة التى تعتمد على الـتجربة والمشاهدة والاستدلال ، أو بمعنى آخر لا تعترف إلا بما تستشعر الحواس وجوده .

غير أن القـرآن الكريم لم يقف عند هذا المنهج المادى وحده ،

فهو بعد أن حدد نطاقه وأبعاده ، ووسائله وأدواته ، أشار كثيراً إلى منهج إيمانى آخر يتعلق بموجودات لا طاقة للبشر على الإحاطة بها جملة أو تفصيلا ، فهى تقع فى عالم عرفه القرآن الكريم بأنه «عالم الغيب» .

وبقدر ما تلاءم المنهج المادى للعلم الحديث مع العالم الذى يتكون من مشاهد وأصوات ومحسوسات فإنه عجز وتخبط أمام «عالم الغيب» الذى أجمع رسل الله على وجوده ، وامتلأت الكتب السماوية بصور مشاهده وأخبار أحداثه ، وقبل هذا وذاك فإن أعماق الإنسان تفيض بأحاسيس خافتة لكنها ثابتة عن وجود ذلك العالم الآخر الذى تنتقل إليه روح الإنسان بعد توقف النشاط المادى لجسمه لتمارس فيه نوعاً آخر من الوجود والاستمرار .

ففى مواجهة الإنسان والحواس يوجد عالمان : أحدهما مادى مشاهد محسوس ، والآخر خفى غيبى مستور ، الأول يسمع الإنسان ويرى من دلائل وجوده ما لا يقع تحت حصر ، أما الثانى فبالرغم من استقرار واستمرار الحديث عنه فليس هناك دليل حسى يؤيد هذا الزعم أو يؤكد ذلك الادعاء ، لكن الإنسان مطالب ليس فحسب بالإيمان بوجوده ، بل وبأن يضبط حياته وتصرفاته لتتمشى مع ذلك الإيمان .

فكيف يؤمن الإنسان بما لم تطلع عليه عين وما لم تستمع له أذن وما لا سبيل لرصده بوسيلة من الوسائل الحسية ؟

إن مواجهة ذلك التساؤل تثير فى العادة مشكلات عديدة تتعذر الإجابة عليها كما يتعذر تجنبها ، تتعذر الإجابة عليها لأن قدرات البشر المتاحة تعجز عن التعامل إلا مع ما هو مادى ملموس ، ويتعذر تجنبها لأن الإنسان يلتقى بها حتماً ، تفاجئه عند أحد منعطفات الحياة على غير انتظار أو توقع ، وهى لا تواجه الكافرين وحدهم ، بل والمؤمنين أيضا ، منهم من يكتم حديثها ومنهم من يبديه ، منهم من يطيل فيها النظر ومنهم من يتعجل الرأى ، وهى قد واجهت من قبل أحد الشعراء فحسمها على النحو التالى :

أموت ثم بعث ثم نشر * حديث خرافة يا أم عمرو

وبصرف النظر عما اشتمل عليه الشطر الثانى فإن الشاعر قد أثار فى الشطر الأول تساؤلاً منطقياً ، فهو لا يملك سبيلاً للمعرفة واليقين سوى حواسه ، وهو منذ دب على الأرض لم ير جنة ولا نارا ، ولم يسمع حساباً ولا جزاء ، فضلا عن أنه لم يصل لعلمه أن هناك من اطلع أو تصنت ، فهو وإن كان يفصح عن مشاعره الخاصة إلا أنه طرح تساؤلا أزلياً ، راود العقل البشرى وسيظل يراوده . . أبعد هذه الحياة حياة ؟ أبعد أن يبلى الجسد ويفنى العظم يتحقق للبشر وجود آخر فى نار للكافرين سعرت أو فى جنة للمتقين أزلفت ؟

إننا - كمؤمنين - نجيب على ذلك كله بالإيجاب ، لكننا نسلم أو يجب أن نسلم بأن ليس ثمة دليل مادى - بين أيدينا - يمكن أن نتقدم به للمنكرين ، وفى فقدان هذا الدليل تنحصر المشكلة التى واجهت ذلك الشاعر ، كما واجهت كثيرين قبله وكثيرين بعده ، فنوقشت فى خبايا النفس حيناً ، وتحركت بها الألسن أحياناً ، وإذا كان شاعرنا المجهول قد عبر فى إيجازه البليغ عن رأى المنكرين ، فلنستعرض بعض آراء المؤمنين ممن خاضوا علانية فيها .

الإيمان بدنيا الغيب

من وجهة نظر العلامة شبلى النعمانى

فى كتاب (الدين فى مواجهة العلم) يورد وحيد الدين خان نقلا عن العلامة شبلى النعمانى ما نصه «مهما قيل ، فإن روح الدين هى عقيدة المعاد فإن كل ما يتمتع به الدين من تأثير وكل ما للدين من أثر على أفعال الإنسان يرجع إلى قوة هذه العقيدة ، وبقدر ما هى عظيمة الشأن بقدر ما هى عسيرة التصور» (١)

الإيمان بدنيا الغيب

من وجهة نظر الإمام الغزالى

وحجة الإسلام الغزالى واجه المشكلة هوالآخر ، لكنه

(١) الدين فى مواجهة العلم - صفحة ٣٠

استعرضها كتجربة شخصية لا كمشكلة عامة ، ثم إنه لم يواجهها صراحة ، بل اتجه إلى مناقشة (العلم اليقينى) ليستعرض من خلاله الإيمان بالغيب . وفى كتابه (المنقذ من الضلال) يفصح الغزالى عن مشاعره على النحو التالى :

«فقلت فى نفسى : أولا ، إنما مطلوبى العلم بحقائق الأمور ، فلابد من طلب حقيقة العلم ، ما هى ؟ فظهر لى ، أن العلم اليقينى هو الذى ينكشف فيه المعلوم انكشافاً لا يبقى معه ريب ، ولا يقارنه إمكان الغلط والوهم ، ولا يتسع القلب لتقدير ذلك بل الأمان من الخطأ ينبغى أن يكون مقارناً لليقين مقارنة أو تحد بإظهار بطلانه .. مثلا فإنى إذا علمت أن العشرة أكثر من الثلاثة ، فلو قال لى القائل : لا بل الثلاثة أكثر بدليل أنى أقلب هذه العصا ثعباناً ، وقلبها ، وشاهدت ذلك منه . لم أشك بسببه فى معرفتى ، ولم يحصل لى منه إلا التعجب من كيفية قدرته عليه، فأما الشك فيما علمته - من أن العشرة أكثر من الثلاثة - فلا . ثم علمت أن كل ما لا أعلمه على هذا الوجه ، ولا أتيقنه هذا النوع من اليقين ، فهو علم لا ثقة به ، ولا أمان معه وكل علم لا أمان معه ، فليس بعلم يقينى ، ثم فتشت عن علومى فوجدت نفسى عاطلاً من علم موصوف بهذه الصفة إلا فى الحسيات والضروريات .

لكن شك الغزالى لم يقف عند هذا الحد بل إنه تمادى فنفى اليقين حتى عن الماديات فقال (فاقبلت بجد بليغ أتأمل فى المحسات والضروريات ، وأنظر هل يمكننى أن أشكك نفسى فيها ؟ فانتهى بى طول التشكيك إلى ان لم تسمح نفسى بتسليم الأمان فى المحسات أيضا وأخذ يتسع هذا الشك فيها)

ثم يقول أخيراً :

(فأعضل الداء ، ودام قريباً من شهرين ، أنا فيهما على السفسطة بحكم الحال ، لا بحكم النطق والمقال حتى شفى الله تعالى من ذلك المرض وعادت النفس إلى الصحة والاعتدال ، ورجعت الضروريات العقلية مقبولة موثوقاً بها على أمر ويقين ولم يكن ذلك بنظم دليل وترتيب كلام ، بل بنور قذفه الله تعالى فى الصدر ، وذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف) (١)

هكذا طافت المشكلة بالغزالى ، بدأت بنفى اليقين عن كل ماعدا الحسيات والضروريات ، ثم تعاظمت المشكلة بعد ذلك عندما سلك الغزالى سبيل بعض الفلاسفة الذين يشككون فى وجود الماديات وفى وجود أنفسهم ، وعلى ذلك فلم يكن لمشكلته من حل إلا - كما قال هو - بنور يقذفه الله تعالى فى الصدر .

الإيمان بدنيا الغيب

من وجهة نظر الإمام عبدالحليم محمود

كذلك فقد ناقش فضيلة الدكتور عبدالحليم محمود المشكلة ذاتها ، لكنه واجهها مباشرة ضمن مشاكل أخرى ، ذلك وهو بصدد الحديث عن (الحس ومشاكل ما وراء الطبيعة) و (العقل ومشاكل ما وراء الطبيعة) فبعد أن أوضح فضيلته تعذر الاستعانة

(١) المنقذ من الضلال . تحقيق الإمام الأكبر الدكتور عبدالحليم محمود . صفحة ٨٧ وما بعدها

بالحس أو بالعقل لكشف ما وراء الطبيعة واختراق ما وراء المادة والصعود إلى الملأ الأعلى ، يقرر :

«إن تجارب الصالحين ، منذ عصور متطاولة ، دلت على أن تزكية النفس وتطهيرها والالتجاء إلى الله والتقرب إليه ، كل ذلك يسمو بالإنسان إلى عالم من الروحانية تستشرف فيه النفس إلى الملأ الأعلى ، فتفيض عليها منه نفحات ، وإلهامات ، ومعرفة لا تتأتى لذوى النفوس المادية الذين شغلوا بالدنيا عن الدين وبالمادة عن الله » (١)

لكن فضيلته يعترف صراحة بأن هذا الحل هو للذين «.. وهبهم الله حساً مرهفاً ، وذكاء حاداً ، وفطرة روحانية ، وصفاء يكاد يقرب من صفاء الملائكة ، وطبيعة تكاد تكون مخلوقة من النور» (٢)

الإيمان بالغيب

من وجهة نظر الإمام محمد عبده

فى كتابه «رسالة التوحيد» تعرض الإمام محمد عبده لمشكلة الإيمان بدنيا الغيب ، وهو قد بحثها باستفاضة وناقشها بصراحة ، يقول :

«هذا شأننا فى فهم عالم الشهادة فماذا نؤمل من عقولنا وأفكارنا فى العلم بما فى عالم الغيب ، هل فيما بين أيدينا من الشاهد معالم نهتدى بها إلى الغائب؟ وهل فى طوق الفكر ما يوصل كل أحد إلى معرفة ما قدر له

(١) المرجع السابق - صفحة ٣٩٤
(٢) المرجع السابق - صفحة ٣٩٧

فى حياة يشعر بهـا ، وبأن لا مندوحة عن القدوم عليها ، ولكن لم يوهب من القوة ما ينفـذ إلى تفصيل ما أعد له فيهـا والشئون التى لابد أن تكون عليها بعـد مفارقة ما هو فـيه ، أو إلى معرفة بيـد من يكون تصريف تلك الشـئـون ؟ هل فى أسـاليب النظر مـا يأخـذ بك إلى اليـقين بمناطهـا من الاعتقادات والأعمال ، وذلك الكون مجهول لديك ، وتلك الحياة فى غاية الغموض بالنسبة إليك . كلا فإن الصلة بين العالمين تكاد تكون منقطعة فـى نظر العقل ومـرامى المشاعـر ، ولا اشتراك بينهـما إلا فيـك ، فالنظر فى المعلومات الحاضرة لا يوصل إلى اليقين بحقائق تلك العوالم المستقبلية» (١)

وبعد هذا التحديد لأبعاد المشكلة يقدم الإمام الحل فيقول :

« . . أفليس من حكمة الـصانع الحكيم ، الذى أقام أمـر الإنسان على قاعدة الإرشاد والتعليم . . أن يجعل من مراتب الأنفس البشرية مرتبة يعد لها بمحض فـضله بعض من يصطفيـه من خلقه، وهو أعلم حـيث يجعل رسالته ، يميـزهـم بالفطر السليمة ، ويبلغ بأرواحهم من الكمال مـا يليقون معه للاستشراق بأنوار علمه ، والأمانة على مكنون سره . . فيشرفون على الغـيب بإذنه ، ويعلمون مـا سيكون من شـأن الناس فيـه ، ويكونون فى مراتبـهـم العلوية على نسبـة من العالمين : نهاية الشـاهد وبدايـة الغـائب ، فهم فى الدنيا كأنهم ليسوا من أهلها ، وهم وفد الآخرة فى لباس من ليس من سكانها» (٢)

---

(١) رسالة التوحيد للإمام محمد عبده - صفحة ٩٣

(٢) المرجع السـابق صـفـحـة ٩٤ - والظاهـر أن الأسـتـاذ الإمـام يرى أن هؤلاء المصطفين هم رسل الله ، لأنه يقول بعد ذلك «ثم يؤيدهـم بما لا تبلغه قـوى البشـر من الآيات ، حتى تقوم بهم الحـجة ، ويتم الإقناع بصدق الرسالة ، فيكونون بذلك رسلا من لدنه إلى خلقه مبشرين ومنذرين » صفحة ٩٥

تلك هى مشكلة الإيمان بوجود دنيا الغيب بكل ما تمثله من بعث وحساب وجنة ونار ، لعلها قد وضحت وتحددت كنتيجة طبيعية أو كوليدة شرعية لغياب عنصر الملاءمة بين قدرات البشر وبين طبيعة دنيا الغيب ، ومن ثم فإنه يمكن القول إنها مشكلة إنسانية عامة وملحة ، ورغم ذلك فقد تواضع الجميع على تغافلها والإلتفات عنها ، أما بالنسبة لهؤلاء الذين تصدوا لها ، فقد اختلفت نظرتهم اليها ، كما اختلفت سبلهم للخلاص منها .

فلقد رأينا من استعرضها مركزة فى نصف بيت من الشعر ثم عالجها فى النصف الثانى فقال «. .حديث خرافة يا أم عمرو» .

كذلك لاحظنا أن نجاة الإمام الغزالى منها كانت بنور قذفه الله فى الصدر ، وهو حل شخصى بحت .

أما الرأى الذى شرحه مفصلا فضيلة الدكتور عبدالحليم محمود فهو لا يحل المشكلة إلا بالنسبة لفئة خاصة هى الصفوة المختارة .

ولنرجىء قليلا مناقشة الحل الذى ارتضاه الأستاذ الإمام محمد عبده ، ولنترك «الصفوة المختارة» و «أصحاب الحلول الخاصة» يتقلبون فى نعيم اليقين ، ولنتجه إلى عامة المؤمنين نشاركهم البحث عن حل هذه المشكلة .

إيمــان عامــة الــنــاس

تمهيد

يقول هنرى برجسون «قد أثبت التـاريخ البشرى أنه قد وجدت فى الماضى السحيق جماعات إنسانية ليست لها فلسفات ولا علوم ولا فنون ، ولكن لم توجد قط جمـاعة إنسانية ليست لهـا عقيدة تؤمن بها وتدين» .

ويقـول الدكتـور دراز «وفكرة التدين فى جـوهرها ليس هناك دليل واحد على أنهـا تأخرت عن نشأة الإنسان» وهو يسـتخلص ذلك مما جاء بمعـجم (لاروس) للقرن العشـرين : مادة (دين) من أن . . الغريزة الـدينية مشـتركـة بين كل الأجناس البشـرية حتى أشدها همجية وأقربها إلى الحيوانية ، وأن الاهتمام بالمعنى الإلهى وبما فوق الطبـيعة هو إحـدى النزعات العالميـة الخالدة ، وهى لا تختفى ولا تضعف ولا تذبل (١)

ومن الممكن إعادة صياغة ما سبق على النحو التالى :

يولد الإنسان وفى فطرته معارف عديدة ، من بينها واحدة ذات شقين :

---

(١) من كتاب (الإيمان) للدكتور على عبدالمنعم عبدالحميد . صفحة ٢١ وما بعدها

الأول : وجود خالق للكون المشاهد المحسوس .

الثاني : وجود حياة أخرى بعد الموت .

أثر هذه الفطرة بشقيها نلمسه واضحاً فى كثير من المشاهد البارزة على وجه الأرض ، لا يجحدها إلا من لا وزن لعقله ولا قيمة لرأيه .

بالنسبة للشق الأول : فتاريخ البشرية يؤكد أن سعى الإنسان لهذا الخالق قد تمثل فى حركة دائبة شملت العصور المختلفة على تباين المدارك فيها ، إن لم يبعث الله الرسل لهدايته بحث هو واتخذ إلهاً حسب هواه ، واتجاه التفكير الإنسانى تلقائياً إلى هذا المنحى يتساوى مع غريزة النحل فى الاندفاع إلى الورود لالتهام رحيقها واستنشاق عبيرها . ونظرة واحدة إلى ذلك الحشد المتنافر من الآلهة التى ابتدعتها عقول البشر خلال حقب التاريخ من جمادات وعجماوات ومظاهر طبيعية - اندثر بعضها وما زال الآخر يعبد حتى اليوم - يثبت أن الإقرار بوجود الخالق قد سجل فى فطرة البشر بمداد يصعب محوه أو إزالته .

أما بالنسبة للشق الثانى : فقد اتفقت العقائد السماوية ومعظم الأعراف الإنسانية المقطوعة الصلة بالسماء على تخيل صورة ما لحياة أخرى تبدأ رحلتها بعد نهاية هذه الأولى تفاوتت بين البشر ترتيبات الاستعداد لها ، وعلى سبيل المثال فقد بلغ من رسوخ

هذا الاعتقـاد لدى المصريين القدماء أن عملهم وتدبيرهـم لحياة ما بعد الموت الغيبية فاق عملهم وتدبيرهم لحياتهم القائمة المشهودة .

ففى فطرة البشر مسطور .

أن للكون المشاهد مبدع خلق وقدر وسيطر .

وأن الموت ليس نهاية المطاف ، بل هو الخطوة الأولى إلى عالم آخر وحياة جديدة .

لكن مـا الذى يحـدث إذا ما أخـضع الإنسـان مـعارفـه هذه للدراسة العلميـة ولقواعد البحث الحديث ، فأرهف سـمعه وأدار بصره وحكم عقله .

ذلك ما نستعرضه مفصلا فيما يلى :

كيف يؤمن الإنسان
بوجود خالق للعالم المادى المشهود

للإنسان أذن تسمع وعين تبصر وفؤاد يحفظ ويعى ، وما وهبنا الله الحواس للزينة ، ومـا أنعم علينا بها للاستمـتاع ، يقول جل شأنـه « **إنّا خلقنا الإنسـان من نطفـة أمشاج نبـتليه فجـعلناه سميـعاً بصيرا** » (١) فعلة منح السمع والبصر هى :

أن يتحمل الإنسان تبعة اختـياره وعاقبة قراره وهو يجيب على السؤال التالى :

هل لهذا الكون إله ؟ وهل بعد هذه الحياة حياة ؟

فـالهدف الرئيـسى من اسـتعـمال الحـواس يجب أن يكون : الاسـتـدلال من روعـة الخلق وانتظام الكون على وجـود الخـالق وعظمته .

فإذا أعرضت الحواس عن تلك المهمـة الشريفة وانصرفت إلى اللهو والعبث فإن صاحبها يندرج فيمن قال الله فيهم « **أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصـارهم** » (٢) لا بحرمـانهم نعمة السمع

(١) سورة الإنسان - آية ٢ (٢) سورة محمد - آية ٢٣

والبصر ، بل بتأكيد صرف حواسهم عما كان ينبغى أن تتجه إليه فيتخبطون فى الحياة .. **«ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها .. »** (1)

إن القول بأن وجود الصنعة دليل على وجود الصانع لم يعد قولاً حماسياً ساذجاً ، بل حقيقة لا يمارى فيها العلم الحديث ، فلينظر الإنسان إلى النبت الأخضر الطرى ، من أين جاء بالقوة ليشق طباق الأرض الصلبة ، ضارباً فى بطنها إلى أعماقها ، وفى وجهها إلى صفحة السماء ؟ ليستمع إلى ما يمكن أن ينجلى عنه تقدم العلوم فى الماء ينزل من السماء هو الماء ، والأرض تمتصه هى الأرض ، فمن أين جاء الثمر بهذا الاختلاف فى الشكل ، فى المذاق ، فى اللون والرائحة ؟ ليسأل الشمس إذا طلعت فاشتعل وجه الأرض بالحركة والنشاط ، وليتأمل الليل إذا ما سجى فهجعت الأحياء وسكنت الأعضاء ، أصدفة عمياء رتبت تواليهما هكذا بما يتلاءم وقدرات الإنسان ؟

إن نهراً صاخباً يفيض بالماء أو نقطة واحدة فيه ، إن سماء صافية أو ملبدة بالغمام ، فى رابعة النهار مشرقة أو فى صميم الليل متشحة بالسواد .. لا شىء فى هذا الوجود إلا ويردد مسبحاً «خلقنى الواحد القادر القهار»

فالأدلة على وجود الخالق ووحدانيته تقوم فى السماء التى تظل

---

(1) سورة الأعراف - آية 179

الإنسان وفى الأرض التى تقله. منها ما عرض للبسطاء محدودى الذكاء ، ومنهـا ما خبـىء للمتدبرين وللمـتفكرين وللبـاحثين ، والإجماع يكاد ينعقد على وجود ووحدانية الله خالق العالم المادى المشهود ، حـتى الذين ينكرون الآخرة ويشركون يشـهدون ، وقد سجل القرآن الكريم اعترافهم فى قوله تعالى :

«ولئن سـألتهم من خلق السـموات والأرض وسـخر الشـمس والقـمر ليقولن الله.. » (١)

«ولئن سألتهم من نزل من السـماء ماء فأحيا به الأرض من بعـد موتها ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون» (٢)

«ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأنى يؤفكون» (٣)

وبعد أن مـاطل العلم الحديث فى وجود اللـه عاد يسلم بذلك ويقر ، وفى كتاب «الله يتجلى فى عصر العلم» اعترافات لثلاثين عالماً من المتـخصصين فى الطبـيعة والكيـمياء والرياضة والأحـياء والنبـات والوراثة يسطرون فـيهـا كلمـة العلم فى وجـود الله ، نختصر بعض ما جاء فيها :

يقول جون كليفلاند كوثران ، من عـلماء الكيمياء والرياضة : (فإذا كان هذا العالم المادى عاجزا عن أن يخلق نفسه أو يحدد القوانين التى

---

(١) سورة العنكبوت – آية ٦١
(٢) سورة العنكبوت – آية ٦٣
(٣) سورة الزخرف – آية ٨٧

يخضع لها فلابد من أن يكون الخلق قد تم بقدرة كائن غير مادى ، وتدل الشواهد جميعا على أن هذا الخالق لابد أن يكون متصفاً بالعقل والحكمة إلا أن العقل لا يستطيع أن يعمل فى العالم المادى كما فى ممارسة الطب والعلاج السيكولوجى دون أن تكون هناك إرادة ، ولابد لمن يتصف بالإرادة أن يكون موجوداً وذاتيا . وعلى ذلك فإن النتيجة المنطقية الحتمية التى يفرضها علينا العقل ليست مقصورة على أن لهذا الكون خالقاً فحسب ، بل لابد أن يكون هذا الخالق حكيماً عليماً قادراً على كل شىء حتى يستطيع أن يخلق هذا الكون وينظمه ويدبره) (١)

ويقول إدوارد لوثر كيسيل (ولما كانت الحياة لاتزال قائمة ، ولا تزال العمليات الكيماثية والطبيعية تسير فى طريقها ، فإننا نستطيع أن نستنتج أن هذا الكون لا يمكن أن يكون أزلياً ، وإلا لاستهلكت طاقته منذ زمن بعيد وتوقف كل نشاط فى الوجود ، وهكذا توصلت العلوم - دون قصد - إلى أن لهذا الكون بداية ، وهى بذلك تثبت وجود الله ، لأن ما له بداية لا يمكن أن يكون قد بدأ بنفسه ولابد له من مبدىء أو من محرك أول ، أو من خالق ، وهو الإله) (٢)

وكذلك يقول إيريل تشتر ريكس عالم الرياضيات والفيزياء (. . هنالك ظواهر عديدة تدل على وحدة الغرض فى هذا الكون وتشير إلى أن نشأته والسيطرة عليه لابد أن تتم على يد إله واحد لا آلهة متعددة) (٣)

---

(١) من كتاب (الله يتجلى فى عصر العلم) ترجمة الدكتور الدمرداش عبد المجيد سرحان

(٢) المرجع السابق - صفحة ٢٧

(٣) المرجع السابق - صفحة ١٠٦

وأخيراً يقول مالكوم دنكان (. . إن الأرض والسموات بسائر تعقيداتهما ، والحياة فى شتى صورها وأخيرا الإنسان بكل قدراته العليا ، كل هذا اشد تعقيداً من أن يتصور الإنسان أنه حدث هكذا وحده أو بمحض المصادفة ، فلابد إذن من عقل مسيطر ، من إله خالق وراء كل ذلك) (١)

وفى كتاب (العلم فى منظوره الجديد) يقول العالم ويلر :

«إن الحياة لم تأت اتفاقا ، ومع إن الإنسان ليس مادياً فى مركز الكون فهو على ما يظهر فى مركز الغاية من خلقه» .

ويعلق مؤلفا الكتاب على ذلك بقولهما « والكون الذى يستهدف ظهور الإنسان يستلزم بداهة وجود عقل يوجهه ، لأن المادة لا تستطيع من تلقاء نفسها أن تهدف إلى أى شيء ، ومن هنا فالنظرة الجديدة تقود مرة أخرى إلى الاعتقاد بوجود عقل يوجه الكون بأكمله وجميع نواميس الطبيعة وجميع خواص المادة إلى غاية ، ونحن نطلق على هذا العقل اسم الله» (٢)

وعن وفرة الأدلة الحسية على وجود ووحدانية الله ترتبت قاعدتان أساسيتان :

الأولى : أن الإيمان لا يقبل بداءة إلا بشهادة ألا إله إلا الله . وما هذه الشهادة فى جوهرها إلا إقرار من صاحبها بأنه قد رأى بعينه وطالع بنفسه وهو فى وعى كامل أنه ليس ثمة إلا إله واحد.

---

(١) المرجع السابق – صفحة ١١١

(٢) (العلم فى منظوره الجديد) سلسلة عالم المعرفة – العدد ١٣٤

ورسول الله ﷺ يشير إلى الشمس فى رابعة النهار ويقول (على مثل ذلك فلتشهد وإلا فلا) .

فالشهادة فى منطق الإسلام - ليست شهادة مجازية أو اعتبارية بل هى شهادة حقيقية ، تعنى الاعتراف بأنه قد تمت معاينة هذه الحالة (وجود الله ووحدانيته) معاينة تامة لم يلابسها شك ولم يعتورها قصور ، كأنها الشمس فى رابعة النهار .

الثانية : **« إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيما »** [(1)] ولا شفاعة هنا بود ، ولا اعتذار بقرابة فالوالدان .. **« وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم .. فلا تطعهما .. »** [(2)] لأن الله .. **«لا يغفر أن يشرك به »** ولأن **« ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق »** [(3)]

وأن **« من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة »** [(4)]

القواعد هنا واضحة تماما وصارمة ، لاقبول لأنصاف الحلول ، فالإقرار بوحدانية الله وتفرده بالخلق والأمر إن لم يكن نقياً وخالصاً رد على صاحبه وألقى فى النار ، فليس من المعقول -

---

(1) سورة النساء - آية ٤٨

(2) سورة لقمان - آية ١٥

(3) سورة الحج - آية ٣١

(4) سورة المائدة آية ٧٢

لذى عقل وسمع وبصر - أن ينسب الفضل فى الخلق والإيجاد كله أو بعضه لبشر أو لغيره من المخلوقات التى قال الله فيها وفيهم **«واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشورا»** (١)

وحتى فيما يتعلق برسل الله فقد صيغت القاعدة ذاتها بطريقة أكثر تشدداً ، يقول تعالى مخاطبا رسوله الكريم **«ولقد أوحى إليك و إلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين»** (٢)

هذا الحسم فى رفض الإشراك بالله مرده أن وجود الله ووحدانيته لا يستدل عليهما بالفطرة وحدها بل بما أوتى الإنسان من حواس ، فبتلك الحواس المتاحة يستطيع المرء أن يعلم أنه لابد من مبدع لهذا الكون المترامى ، وأن تهيئة الأرض لسكنى البشر ومعيشتهم على هذا النحو المتكامل لابد له من منظم ، يستطيع الإنسان بحواسه وحدها أن يعى أن خلق السموات والأرض لم يتم بصدفة تهيأت فأوجدت ، أو بطبيعة تخبطت فأبدعت ، إنما تم ذلك كله بالحق وبالقدرة ، بالحكمة وبالتدبير ، لذلك فعندما جادل أقوام فى وجود الله ووحدانيته وقالوا لرسلهم **«إنا كفرنا بما**

---

(١) سورة الفرقان - آية ٣

(٢) سورة الزمر - آية ٦٥

أرسلتم به وإنا لفى شك مما تدعوننا إليه مريب» [1] تعجب الرسل لعجـز القوم عن الاستدلال بحـواسهم على هذه البديهـية وردوا باستنكار **«أفى الله شك . . فاطر السموات والأرض . .»** [2]

---

(١) سورة إبراهيم - آية ٩

(٢) سورة إبراهيم - آية ١٠

كيف يؤمن الإنسان بدنيا الغيب

البعث - الحساب - الجنة والنار

يشهد التاريخ قديماً وحديثاً أن البشر قد احتفظوا خلال مراحل تطورهم المختلفة بأحاسيس ثابتة عن وجود حياة أخرى بعد هذه الأولى ، وأنه قد كان لتلك الأحاسيس أثرها على فكرهم وتدبيرهم الدنيوى ،وأن ارتباط هذه الأحاسيس بالإنسان البدائى الذى لم يكن قد اخترع شيئاً على الإطلاق ليؤكد أنها لم تكن من اختراعه ، كما أن صمودها حتى فى عصر ازدهار العلم لدليل على أنها لم تكن ضرباً من الأوهام بل هى أحاسيس صادقة تعبر عن حقيقة أكبر من قدرات البشر وفوق طاقاتهم ، ولكن ذلك لا يمنع من الإقرار بأنها بقيت بلا دليل مادى يؤيدها ، ومن ثم تعرضت للإنكار والرفض ، وهذه درجة تخرج الإنسان من دائرة الإيمان ، أو للشك والتساؤل ، وتلك درجة يسلك الإنسان فيها سبيل الباحثين عن الحقيقة أو المتطلعين إلى اطمئنان القلوب .

فلقد انتهى تطور العلوم الحديثة إلى ما سبق أن قرره القرآن

الكريم من أن وسائل البشر للعلم والمعرفة هى حواسهم وأن ما لا يخضع لهذه الحواس لا يجوز - كقاعدة عامة - الإقرار بوجوده وان المعاينة وحدها هى التى تورث اليقين .

وفى تفسير قوله تعالى **(كلا لو تعلمون علم اليقين)** يقول الأستاذ الإمام محمد عبده :

والجدير بأن يسمى علماً هو علم اليقين ، أى العلم الذى هو من أفراد اليقين ، واليقين هو الاعتقاد الذى يطابق الواقع عن عيان أو دليل صحيح ، مقدماته بديهية أو منتهية إلى البديهيات بحيث يستحيل تغييره ، والنفس إذا ملكت هذا النوع من العلم ملك هو إرادتها وعاد المصرف لها فى شئونها .

كما يقول فى تفسير قوله تعالى **«ثم لترونها عين اليقين»** أى لترونها رؤية هى اليقين نفسه . وعلم العيان والمشاهدة من أفراد اليقين يسمى عين اليقين لأنه هو الذى تنتهى إليه جميع العلوم اليقينية لأن العلم البرهانى إن لم ينته إلى علم عيانى لا يعد يقيناً (١)

فعلم الإنسان بما يقع فى نطاق حواسه ليس كعلمه بما يقع خارج هذا النطاق ، وفى قصة سليمان النبى مع الهدهد ما يؤيد ذلك . لقد غاب الهدهد ثم عاد يقول **«أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين»** (٢) أيقن الهدهد إذ سمع ورأى ، أما سليمان الذى لم ير فقد شك - وهو نبى - فى القصة وقال **«سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين»** (٣)

(١) تفسير جزء عم . للأستاذ الإمام محمد عبده
(٢) سورة النمل - آية ٢٢
(٣) سورة النمل - آية ٢٧

ولرسول الله ﷺ حديث حاسم فى هذا الأمر يقول فيه «ليس الخبر كالمعاينة» .

ولأن البعث والحساب والجنة والنار لا يمكن أن تكون محلاً للمعاينة ، لذلك ففى مجال إثباتها اكتفى القرآن الكريم بالأدلة المنطقية ، فبعث الخلق بعد الموت لا يزيد على إحياء الأرض بعد إجدابها وبوارها كما فى قوله تعالى **«فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيى الأرض بعد موتها إن ذلك لمحيى الموتى وهو على كل شىء قدير»** [1] والذى برأ الوجود وأنشأه من العدم لا يعجزه أن يعيده بعد فنائه ، بل إن ذلك أيسر وأهون ، كما فى قوله تعالى **«وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه.. »** [2]

لكن الخط الأساسى فى هذا الصدد أكدته آيات كثيرة تتحدث عن (الذين يؤمنون بالغيب) أى بما لا دليل حسى على وجوده ، وفى تفسير الطبرى عن سعيد بن أبى عروبة ، عن قتادة فى قوله تعالى «الذين يؤمنون بالغيب» قال : آمنوا بالجنة والنار والبعث بعد الموت وبيوم القيامة وكل هذا غيب .

فسواء اقتنع الإنسان بالأدلة المنطقية أم لم يقتنع فعليه أن يسلم بأن البعث والجزاء والجنة والنار غيب ، وأن عليه أن يؤمن بوجودها دون دليل حسى .

(١) سورة الروم – الآية ٥٠

(٢) سورة الروم – الآية ٢٧

فكيف يؤمن الإنسان بعالم لم تطلع على مشاهده عين ولم تستمع لما يتردد فى جنباته أذن ، ولم يتيسر رصده بوسيلة من وسائل البشر الحسية ؟

إن قيل يسترشد بعقله جاءت الإجابة بأن العقل كالقاضى إن لم تقدم له دعوى مفصلة وأدلة بينة استحال عليه إصدار حكمه أو إبداء رأيه ، فإعمال العقل هنا يمكن أن يؤدى إلى إنكار الغيب لا إلى إثباته .

ولعل أبعاد هذا الموقف وأهميته تتضح أكثر عندما نستعيد حديث رسول الله ﷺ «ليس الخبر كالمعاينة» ثم نلاحظ أن التسليم بوجود «دنيا الغيب» بما تشتمل عليه من ترغيب وترهيب هو الذى يضبط فى الغالب تصرفات البشر ويردعهم عن البغى والعدوان ، فضلا عن أنه هو المحك الحقيقى للكفر والإيمان . فالذين أعلنوا إيمانهم بوجود الخالق وقال الله فيهم **«ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله»** لهم بعد ذلك فى الإيمان بالغيب رأى آخر ، فهم يقولون **«ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر . . »** (١) ثم إنهم تمادوا فـ **«أقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت . . »** (٢)

وسواء تجنبنا الغلو فى الإنكار المفضى إلى الكفر ، أوشككنا فى صحة الاعتماد على الحواس كوسيلة وحيدة لبلوغ اليقين

---

(١) سورة الجاثية - آية ٢٤   (٢) سورة النحل - آية ٣٨

فإن مشكلة الإيمان بوجود الغيب لن تختفى بل ستظل قائمة حتى بالنسبة لأكثر الناس تديناً . فقد وهب الله الإنسان حواساً عن طريقها يوقن ويتأكد . وفطره سميعاً بصيراً يسمع ويرى فيتثبت ويتحقق . وهذه الحواس التى هى آلاته للرصد - مصممة أساساً للتعامل مع الماديات ، وهى قد اختزلت معارفه فى قواعد محددة تدور فى إطار المحسوسات ، إن أفادت يقيناً بالعالم المرئى المشهود فإنها لا تفيد إلا إنكاراً لعالم الغيب الخفى المستور .

ولقد استعرضنا من قبل هذه المشكلة من وجهة نظر المنكرين الذين قال شاعرنا المجهول على لسانهم (حديث خرافة يا أم عمرو) كما اطلعنا على وجهة نظر الصفوة المختارة (الأستاذ الإمام عبدالحليم محمود) وأصحاب التجارب الخاصة (الغزالى) الذين قدموا لنا حلولاً ، وإن كانت فردية فإنها أيضا ميتافيزيقية ، لأن الرؤية التى تحققت لهم - إن صح الادعاء بوجود رؤية - كانت سمواً روحانياً ذاتياً فوق طاقة البشر .

ويبقى السؤال : ما هو موقف الأديان من هذه المشكلة ؟ وكيف عالجتها بالنسبة لعامة البشر ؟

الواضح أن العقائد السماوية قد استوعبت هذه المشكلة منذ المراحل الأولى للوحى ووازنت بين اعتبارات فرض الإيمان بالغيب على بنى الإنسان وبين قدراتهم الحسية ، وافترضت أن أية محاولة

لإثبات الغيب فى حدود قوانين ومسلمات عالم الشهادة لن تكون إلا كالنقش على الماء ، وهو ما فرض فى واقع الأمر تحديد مجال البحث فى إطار مخالفة تلك القوانين والمسلمات ، وذلك بإجراء خارق يتمثل فيه الخروج على قوانين البشر المعروفة لديهم المستقرة بينهم ، وفى ذلك تكمن العلة فى تسليح الرسل بمعجزات يدللون بها على صحة دعواهم أن هناك **(بعث وحساب وجنة ونار)** أما وجود الله ووحدانيته فلا شأن للمعجزة بهما ، تأمل ما فى السماء والأرض يكفى لإثباتهما ، وهو - هذا التأمل - فى دلالته على وجود الله وتفرده بالخلق والأمر يفوق فى أثره ما يمكن لأى معجزة أن تحققه .

والمعجزة - حسب التعريف الشائع - عمل خارق يجرى على يد الرسول لا يقدر على الإتيان بمثله بشر . وهو تعريف صحيح لكنه يركز على شكل المعجزة المحدود ويعرض عن مدلولها المطلق ، ولنأخذ عصا موسى هنا كمثال .

فلقد عرف الإنسان العصا وتعددت أوجه انتفاعه بها ، وطبقا لمعارفه فهى لا تتحول إلا إلى حطام إن تهشمت أو رماد إن احترقت ، فعندما يأتى موسى عليه السلام ويقول : إنه رسول من عند الله وإن للمتقين فى الآخرة ثواب عظيم وللمكذبين عذاب اليم ، ثم يطرح تأييداً لدعواه عصاً ميتة تنقلب ثعباناً حياً فالمرسل إليهم يواجهون حدثاً يعجزون عن الإتيان بمثله فى

نطاق ما اعتادوه من قوانين وما اضطردت عليه حياتهم من نظم .

وعند هذا الحد - أى النظر إلى المعجزة من الخارج - يقف تعريف العلماء لهـا ، فى حين أن المعجزة بمخالفـتها للسنن الثابتـة لعالم الشهادة إنما تحمل فى طياتها دليلاً مـعتبراً على وجود عالم آخر له إمكانات غير محدودة وطاقات غير مقيدة يعجزون عن استيعابه ، عجـزهم عن استـيعـاب حدث المعجـزة الذى اقتـحم أسمـاعهم وأبصارهم ، وعليهـم أن يسلموا بوجوده تسليمهـم بالمعجزة التى مازالت غـرابتهـا تتراءى فى مخـيلتهم . فـمعجـزات الرسل هى الوسـائل التى طرحت لإقـناع البشـر بوجود عـالم الغـيب غيـر المشهـود ، وهى تتحدى مشـاعرهم بأمر واقع جديد ، يؤكـد ما سطر فى فطرتهم عن وجود عـالم آخر غير عالمهم ، له نوامـيسه التى لا تستوعبـها عقولهم ، وقدراته التى لا تطيقـها حواسهم ، وهى تقـدم لهم الدليل على ذلك فى عمل خـارق يعجـزون عن إدراجه تحت أى من قوانينهم كوسيلة لإقناعهم :

أولا : بوجود عالم غيبى بدليل حسى

ثانيا : مغايرة عالم الغيب وقوانينه لعالم الشهادة وقوانينه

لكن المعجزة لا تقوم على رؤوس الناس ليل نهار ، بل إنها لا تقدم لهم كل آن [1] وفى أوقات غيابها يـروق للبعـض أن يتبـجح

(١) باستثناء القرآن الكريم فهو معجزة قائمة دائمة

كما فعل فرعــون وملأه ، إذ بعدما رأوا الآيات قالوا «**ما هذا إلا سحر مفترى . .** » [1] ثم إن هناك طوائف مردت على الجدال بلا دليل واحترفت الجحود دون حجـة ، وفيهم نزل قوله تعالى «**ولو فتـحنا عليهـم باباً من السمـاء فظلوا فيـه يعرجون . لقـالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون**» [2]

وإذا أضفنا إلى ذلك أن أثر المعجزة يرتبط عادة بوجود الرسول وبحياته ، فـإنه يتعين الإقرار بأن الإحســاس الفطرى بوجود عالم الغيب ســوف يفتـقد من جديد - بعـد وفاة الرســول - وتعاقب الأجيــال ذلك الدليل الذى اكتسـبه حين من الدهر إبان حـياته ، ويكون على من يرجو لقاء ربـه أن يعود إلى زمرة الذين (يؤمنون بالغيب) أى بوجود ما لا دليل على وجوده .

لذلك فما من بشر مهمـا علا فى الإيمان قدره وعظم فيه شأنه إلا ومسه طائف من الشـيطان تمكن منه فجرى - لحين من الوقت - مجرى الدم في العروق ، فتساءل .

أموت ثم بعث ثم نشر ؟

وفى هذا الموقف يسـقط أقوام وهم يرددون مع الشـاعر قـوله (حـديـث خـرافـة يا أم عمرو) ومن هذا الموقف ينطلق أقوام وقد عمـر اليـقين قلوبـهم فيجيبـون إجابـة الواثـق المطمـئن (نعـم إنا

---

(١) سورة القصص - آية ٣٦

(٢) سورة الحجر - آية ١٤ ، ١٥

لمبعوثون ، وإنا لمدينون) لكن ذلـك لا يتأتى إلا بفضل من الله ، أو كما يقول الغزالى «بنور يقذفه الله فى القلب» أما بالنسبة لعامة المؤمنين فهناك إشـارات كثيرة إلى مـا يجتاح نفـوسهم من قلق ، يقول ابن تيمية (وكثيراً مـا يعرض للمؤمن شعبة من شعب النفاق ثم يتوب الله عليه ، وقد يرد على قلبه بعض ما يوجب النفاق ، ويدفعـه الله عنه ، والمؤمن يبتلى بوساوس الشـيطان ، بوساوس الكفر التى يضيق بهـا صدره كما قالت الصـحابة : يا رسول الله إن أحدنا ليجد فى نفسه ما لئن يخر من السماء إلى الأرض أحب إليه من أن يتـكلم به . .) ثم يقول (ولابد لعامـة الخلق من هذه الوساوس) (١)

أما ابن القيم فـيقول . . قال ابن عباس لأبى زمـيل وقد سأله «ما شىء أجـده فى صدرى» ؟ قال : مـا هو ؟ قال : قلت والله لا أتكلم به . قال ، فقال لى : أشىء من شك ؟ قلت : بلى . قال لى : مانجا من ذلك أحد ، فإذا وجـدت فى نفسك شيئاً فقل هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شىء عليم (٢)

فـالشك فى وجود دنيـا الغـيب يمكن أن يقع ، والتسـاؤلات حولهـا يمكـن أن تـثور دون أن يخرج الإنسـان بـذلك عـن دائـرة

---

(١) من كتاب (الإيمان) لابن تيمية ، طبعة أنصار السنة المحمدية - صفحة ٢٤١ وما بعدها

(٢) زاد المعاد لابن القيم ، الجزء الثانى - صفحة ٣٥

الإيمان، لأن الشك هنا - حسب تعبير ابن عباس - يعتبر حالة .. ما نجا منها أحد ، والحديث الذى أورده البخارى فى باب الإيمان يوضح ما اشتمل عليه الإسلام من يسر فى هذا الجانب، يقول : عن سعيد الخدرى رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ أنه قال : يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ثم يقول الله تعالى «أخرجوا من كان فى قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان» فيخرجون منها قد اسودوا فيلقون فى نهر الحياة فينبتون كما تنبت الحبة فى جانب السيل .

ولن نقف على وجه الحق فى قوله تعالى **«إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة»** وبيان رسول الله ﷺ عن قول الله عز وجل «أخرجوا - من النار - من كان فى قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان» ما لم نصرف ما جاء بالآية الكريمة إلى اختصاصه بجانب الإقرار بوحدانية الله وتفرده بالخلق، ونصرف ما جاء بالحديث الشريف إلى اختصاصه بجانب الإيمان بالبعث والجزاء ، يتأكد هذا المعنى عندما نلاحظ أن الشرك لا يمكن أن يلحق إلا جانب الإيمان بوجود الله ووحدانيته ، أما الإيمان بالبعث والحساب والجنة والنار فلا يمكن أن يعتوره شرك ، لكن يمكن أن يلابسه شك .

وكثرة الأدلة الحسية على وجود الله ووحدانيته أوجبت أن

يصدر الإيمان هنا عن اقتناع حقيقى بالرؤية . ومن يتردد فى ذلك فقد حرم الله عليه الجنة . وانعـدام الأدلة الحسية على وجود دنيا الغيب أتاحت للإنسان أن يتسـاءل وأجازت له فى حدود معينة أن يتشكك ، وسـمحت لإيمانه أن يقوى ويضـعف وأن يزيد وينقص ومع ذلك يكون له فى عفو الله نصيب وفى رحمته متسع حتى لو بلغ إيمانه بوجود الغـيب مثقال حبة مـن خردل ، وهو قدر يكفله تجنب الإصرار على إنكار الغيب .

وذلك كله بالنسبة لآحاد الناس وعامة الخلق

فهل يقبل مثله من رسل الله ؟

قد تـعذر الإجابة على هـذا السؤال بالإيجاب ، فـمصداقـية الرسل لتـبليغ الرسالة تـتعـارض مع إيمان يقوى ويضـعف ويزيد وينقص .

وكيف يتـسنى لهم إقناع الآخرين بوجود مـا هم أنفسهم غـير موقنين من وجوده ؟

وإذا كانت الإجـابة بالنفى ، فكيف يكتمل إيمـان الرسل بدنيا الغيب ويصل لدرجة اليقين ؟

ولنستبعد من مجال البحث تجارب (الصفوة المختارة) التى أشار إليهـا الدكتور عـبدالحليم محـمود ، وأزمات أصـحاب (الحلول

الخاصــة) الذين كان الغــزالى من بينهم ، فإقناع العــامة يجب أن يستند إلى مقاييس عامة لا إلى تجارب ذاتية خاصة .

فهل كان لرسل الله طبيعة مختلفة وإمكانات غير عادية أتاحت لهم الاطلاع على ما تم حجبه عن سائر البشر ؟

ذلك ما نسعى للإجابة عليه فى الصفحات التالية

طبيعة المرسلين
وكيفية إيمانهم بالغيب

اقتضت حكمة العليم بخلقه ، الخبير بهم أن يكون الرسل إلى البشر منهم ومثلهم ، يتكلمون لغتهم ويشاركونهم حياتهم ، يقول جل شأنه **«وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم . . »** [1] والحكمة من ذلك غير خافية ، فجوهر الرسالة هو اقتداء المرسل إليهم برسولهم ، فإذا لم يكن الرسول منهم ومثلهم استحال إلزامهم امتثال الطاعة له أو حثهم على الاقتداء به .

ويبدو أن بشرية الرسل كانت مثار اعتراض المرسل إليهم على الدوام ، فالرد على دعوى الرسل المنطقية كما يحكيها قوله تعالى فى سورة إبراهيم **«أفى الله شك فاطر السموات والأرض . . »** [2] لا يكون بدراسة القضية المطروحة دراسة موضوعية ، بل بإثارة اعتراض جانبى من قبيل ما يعرفه رجال القانون بأنه «دفع شكلى» **« قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا . . »** [3] وهنا لا يعترض الرسل على بشريتهم ، يقولون **« إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده . . »** [4]

---

(١) سورة إبراهيم – آية ٤

(٢) سورة إبراهيم – آية ١٠

(٣) سورة إبراهيم – آية ١٠

(٤) سورة إبراهيم – آية ١١

وقد اهتم كتاب الله بهذه الدعوى ، وفى ذلك نقرأ قوله تعالى **«وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشراً رسولا»** (١) ويجيبهم **«قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولا»** (٢)

كذلك قوله تعالى حكاية عن المعاندين **«وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا»** (٣) ويكون الرد عليهم **«وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق . . »** (٤)

ولو رجعنا إلى الآية الأخيرة من سورة الكهف لوجدنا القاعدة العامة التى تحدد طبيعة رسل الله ، وذلك فى قوله تعالى موجهاً رسوله الكريم **«قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلىّ . .»**

فلرسل الله كما تبين الآية الكريمة وغيرها صفتان :

الأولى : بشرية يثبتها قوله تعالى : «قل إنما أنا بشر» . . وبمقتضى هذه الصفة يتساوى الرسول مع غيره فهو يجوع ويشبع ويحزن ويفرح ، ويغضب ويرضى و«مثلكم» تبين أن الرسول قد لا يكون أقوى قومه جسداً ولا أحدهم ذكاء ، ولا أكثرهم مالا ، كذلك فهى تؤكد أنه لا امتياز للرسل بوسائل غير ما أوتى البشر ،

---

(١) سورة الإسراء – آية ٩٤

(٢) سورة الإسراء – آية ٩٥

(٣) سورة الفرقان – آية ٧

(٤) سورة الفرقان – آية ٢٠

فما لهم من آلة للبصر غير أعينهم ، وما لهم من سبيل للسمع غير آذانهم ، وهم يولدون - كغيرهم - بلا علم ، ثم يبدأ جمعهم للحقائق والمعارف فى حدود ما تطيقه حواسهم وما تستوعبه أفئدتهم وما يخوضونه من تجارب وأحداث .

أما الصفة الثانية لرسل الله فهى تلك التى يكتسبونها من اتصال الوحى بهم ، وهو اتصال يتحقق لهم به الامتياز على غيرهم من البشر .

فما هو الوحى ؟

وما هى الإمكانات التى يتيحها للرسول ؟

فها نحن حيال بشر مثلنا ، هو فى الغالب مكتمل الرجولة ، ناضج العقل سوى التفكير ، وهو مشغول كغيره فى حل مشكلات الحياة المتتابعة كموجات البحر ، ثم إذ بطارق يضرب عليه الباب ، ليس إلى عالم الشهادة ينتمى ، بل من عالم الغيب أتى ، وهو يلقى فى روعه أن الاختيار قد وقع عليه ليكون رسولاً إلى الناس يبلغهم رسالات ربه ، ثم يختفى من حيث جاء ، وفى اللحظات التالية ينتبه الرسول ليجد نفسه وحيداً ، قد فارقته صورة الملك وصوته ، لكن كلماته تعاود الرسول يجدها معارف حية تنبض فى فؤاده قد سطرها الوحى بحروف من النور .

وفى تعريف الوحى الذى يحدث ذلك التأثير الحاسم يقول

الأستاذ الإمام محمد عبده (وقد عرفوه شرعا أنه إعلام الله تعالى لنبى من أنبيائه بحكم شرعى ونحوه . أما نحن فنعرفه على شرطنا بأنه عرفان يجده الشخص فى نفسه مع اليقين بأنه من قبل الله بواسطة أو بغير واسطة، والأول بصوت يتمثل أو بغير صوت ، ويفرق بينه وبين الإلهام بأن الإلهام وجدان تستيقنه النفس وتنساق إلى ما يطلب على غير شعور منها من أين أتى ، وهو أشبه بوجدان الجوع والعطش والحزن والسرور» (١)

وعن كيفية الوحى يعقد المفكر الإسلامى مالك بن نبى بحثا هاما فى كتابه «الظاهرة القرآنية» . . وهو بعد أن يورد التعريف السالف للوحى يقول (ولقد بقى فى هذا التعريف الذى أسهب الأستاذ الإمام فى تحديده بعض الغموض فيما يتعلق بتفسير اليقين عند النبى . والواقع أننا فى الحالة التى لا يكون الوحى فيها منتقلاً بطريقة محسوسة - مسموعة أو مرئية - سنقع فى تعريف الوحى تعريفاً ذاتياً محضاً ، إذ إن النبى فى التحليل الأخير لا يدرى بصفة موضوعية كيف جاءته المعرفة ، وهو يجدها فى نفسه مع تيقنه بأنها من عند الله ، إن فى ذلك تناقضاً واضحاً يخلع على ظاهرة الوحى كل خصائص المكاشفة ، ولكن هذه - كما يجب أن نكرر - لا تنتج يقيناً مؤسساً على إدراك (٢)

وعلى ذلك فإن الوحى عند الأستاذ مالك هو (المعرفة التلقائية والمطلقة لموضوع لا يشغل التفكير وأيضا غير قابل للتفكير) (٣)

---

(١) رسالة التوحيد - صفحة ١٠٩
(٢) الظاهرة القرآنية - صفحة ١٧١
(٣) المرجع السابق - صفحة ١٦٨

واستكمالاً للدراسة نتابع مع الأستاذ مالك استعراضه لبعض جوانب الظنون التى يمكن أن تساور النبى حول ظاهرة الوحى وانفعالاته حيالها وذلك إذ يقول :

«هل سمع ورأى حقا ؟ أو أن هذا الحادث السمعى البصرى لم يكن سوى سراب باطنى ، انبعث فى نفسه تحت تأثير انفعال مؤلم قاده إلى شفا الهاوية ؟ ألم تخدعه جوارحه المنفعلة ؟ . . لقد كان يجب أن تثور هذه الأسئلة من أول وهلة فى ذهن النبى ، حتى قبل أن يثيرها النقد فى عصره أو عصرنا» (١)

والواقع أن الدراسة المطولة التى أجراها الأستاذ مالك على ظاهرة الوحى واقتناع النبى بها لم تكن من قبيل المران العقلى ، فالأقرب إلى التصور هو أن النبى - بعد اللقاء الأول بالوحى - يخضع الحدث كله للدراسة والتمحيص فى ضوء مقاييسه الخاصة ومعارفه العامة قبل أن تنعقد إرادته على الانقياد له ، ومن ثم فكل التساؤلات التى أثارها الأستاذ مالك حول شكوك المرسلين هى من قبيل الاحتمالات الواردة ، وقد وضع رحمه الله مقياسين يتغلب بهما النبى على شكوكه ويتخطى أزمته :

المقياس الأول : ظاهرى ، فالاختلاط أو «الهلوسة» لا يمكن أن تؤدى أصواتا كما يفعل الوحى ، ثم إنه - أى الوحى -

---

(١) المرجع السابق - صفحة ١٧٧ ، ١٧٨

يتمثل فى صورة مادية ، وتصاحبه مظاهر حسية يشعر بها الآخرون فينتفى بذلك احتمال كون الوحى مجرد سراب باطنى .

المقياس الثانى : عقلى ، فالأفكار الموحى بها بما تتضمنه من معلومات مجهولة من النبى ومن الوسط الذى يعيش فيه والتى تقلب المعرفة الضئيلة للنبى المحاطة بسياج مزدوج من الجهل العام والأمية الخاصة ، تؤكد له أن مصدر هذه الأخبار المنزلة يقع خارج ذاته وخارج مجتمعه كما أن الوحى لا يوافيه طوع إرادته ، فلقد بدا له عصيا لا يمكن أن يخضع له كما لا تخضع له أفكار الآخرين وكلماتهم (١)

وعند هذا الحد (اقتناع الرسول بظاهرة الوحى) توقف بحث الأستاذ مالك ، ورغم ذلك فإنه تجاوز - فيما أتى به - المحظور، فالفكر الإسلامى كان قد آثر السلامة وتجنب الخوض فى كل ما يتصل بالجوانب الشخصية والنفسية للرسل ، وذلك فيما يبدو استناداً إلى افتراض غير صحيح بأن للأنبياء طبيعة خاصة ، وأن قلوبهم قد ارتعت إيماناً لحظة تكليفهم بالرسالة ، وأن إسلامهم الوجه لله قد تم جبراً دون أن يكون لهم جهد فيما بلغوه أو ما اكتسبوه ، فى حين أن الأمر ليس كذلك ، والأنبياء ليسوا على تلك الدرجة من السلبية، فلإرادتهم نصيب فى تشرب ما يسبغ عليهم من إيمان وفى الاقتناع بما يوحى به من معتقدات

---

(١) المرجع السابق - صفحة ١٦٧ الى ١٩٩

ولـولا ذلك لما كان لهم من فضل ، فعقيدة الخالق الواحد هي من الأفكار المقبولة عقلاً قبل أن تكون مـفروضة شرعاً ، وما نحسب أن وحيـاً بتعدد الآلهة يمكن أن يلقى قـبولاً لدى أى عاقل مهـما أيدته المعجزات .

فإذا جاء الأستاذ مالك وخالف ما استقر عليه الفكر الإسلامي وسلط الأضواء على الانفـعالات الشخـصية للرسول بعـد اللقاء الأول بالوحى ، وأوضح أن التساؤلات التى تثور حوله فى البداية هى التى تؤدى فى النهاية إلى الاقتناع به ، فقد كان عليه - رحمه الله - أن يلاحظ أن درجـة اليـقين التى يصل إليهـا اقـتناع النبى سـوف تقف عند ظاهرة الوحى لا تتـعداها ، وبالتـالى فقـد كنا نتمنى لو أنه تابع انطلاقتـه وتعرض لكيفية اقـتناع الرسول بالعالم الذى ينتـمى إليـه الملك حـامل الوحـى ولما يرد فى رسـائله عن الثواب والعقاب ، لأن حاجة النبى إلى معـايير يقيم عليها اقتناعه بعالم الغـيب هى بالقطع أشد من حاجتـه إلى معايير يقيـم عليها اقـتناعـه بظاهرة الوحى . . وعلى ذلك ، فـإن السـؤال عن أثر الوحى على علم الرسول ، وبالتالى اقتناعـه بالغيب مازال يبحث عن إجابة .

ولنفرق هنا ابتداء بين :

العلم بما فى صحف الغيب ، أى معرفة مـا حدث فيما مضى وما سوف يحدث فيـما هو آت ، وهو الذى إليه الإشارة فى قوله

تعالى على لسان رسوله (**ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء . .**) [1]

وبين الغيب الذى نعنيه فى هذه الدراسة وهو عالم ما بعد الموت من بعث وحساب وجنة ونار .

ولنخص كلا منهما ببيان على حدة .

(١) سورة الأعراف - آية ١٨٨

اثر الوحى

على علم الرسل بما فى صحف الغيب

عن علم رسل الله بما فى صحف الغيب هناك نصوص صريحة تحدد قدرتهم على الإحاطة بما فيها ، وهى تشتمل على قاعدة عامة وإستثناء .

أما القاعدة فقد أكدتها آيات عديدة منها :

«وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو . . » [١] وكذلك **«وما كان الله ليطلعكم على الغيب . . »** [٢]

وأما الاستثناء على هذه القاعدة فقد ورد مرة واحدة ، والآية الكريمة التى قررته جاءت مباشرة بعد آية تؤكد القاعدة العامة ، وذلك فى قوله تعالى **« عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً . إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا»** [٣] والغالب أن هذا الاستثناء يكون جزئياً ومحدوداً ،

---

(١) سورة الأنعام – آية ٥٩

(٢) سورة آل عمران – آية ١٧٩

(٣) سورة الجن – آية ٢٦ ، ٢٧

استناداً لقوله تعالى **«ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء ..»** ومن أمثلة ذلك قول صالح عليه السلام لقومه عندما عقروا الناقة **«تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب»** (١) ومن أمثلته أيضا ما أوحى به إلى محمد رسول الله ﷺ من انتصار الروم على الفرس قبل إشتعال الحرب بينهما بسنوات ، وذلك فى قوله تعالى **«الم . غلبت الروم . فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون. فى بضع سنين»** (٢)

لكن أبرز حالات العلم بما فى صحف الغيب هو ما جاء بآيات سورة الكهف ، ولو أن الاختصاص بالعلم فيها لم يكن من نصيب الرسول موسى ، بل كان للخضر عليه السلام (٣)

الأول آتاه الله حكماً وعلماً واصطفاه على الناس برسالاته وبكلامه ، أما الثانى فقد آتاه الله من لدنه علماً ، أى اختصه بمعرفة بعض ما كان وما سيكون ، والتقيا :

«قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمنِ مما علمت رشداً . قال إنك لن تستطيع معى صبرا» (٤)

هكذا ومن البداية ظهر الفرق بين الرجلين ، فالمطلع منهما على ما بصحف الغيب يعلم مسبقا أن موسى لن يقدر ولن

---

(١) سورة هود – آية ٦٥ (٢) أول سورة الروم
(٣) اختلف المفسرون فى شأنه ، فبعضهم على أنه عبد صالح وآخرون على أنه نبى
(٤) سورة الكهف – آية ٦٦، ٦٧

يصبر ،لكن موسى يعد بالصبر والطاعة وهو يعتقد أنه سيبر بوعده ويفى بعقده « **قال ستجدنى إن شاء الله صابراً ولا أعصى لك أمرا**»[1]

وانطلقا . .

والآيات الواردة بعد ذلك من سورة الكهف ليست فى حقيقة الأمر إلا مقارنة بين العلم المستفاد من الحواس حتى بالنسبة للأنبياء ، وبين العلم بما فى صحف الغيب المكتسب بالإفاضة من الله كاستثناء خاص .

فعندما ركبا فى السفينة خرقها الخضر فاحتج موسى قال «**أخرقتها لتغرق أهلها . .**» [2]

فلما عاودا سيرهما لقيا غلاماً فقتله الخضر فاعترض موسى ، قال «**أقتلت نفساً زكية بغير نفس. .**» [3]

ثم إنهما مرا بقرية رفض أهلها أن يضيفوهما فعمد الخضر إلى حائط متصدع فهدمه وأعاد بناءه ، فتعجب موسى لصنيع صاحبه مع من أساءوا إليهم ورفضوا إطعامهم ، ولم يتمالك نفسه فقال «**لو شئت لاتخذت عليه أجرا**» [4] وهنا أصبح الفراق بين الرجلين أمراً مقضيا ، لكن الخضر أراد أن يبين لموسى فساد ما يمكن أن

---

(١) سورة الكهف – آية ٦٩

(٢) سورة الكهف – آية ٧١

(٣) سورة الكهف – آية ٧٤

(٤) سورة الكهف – آية ٧٧

تؤدى إليــه الحـواس ويوضـح له أن النظر إلى الحــدث فى ذاته منفصلاً عن المـاضى ومعزولاً عن المستقـبل يؤدى فى الغالب إلى أحكام خاطئـة ، فما نراه شراً نجزع لـه قد يكون سببـاً لخير أعم وأبقى ، وما نحسبه خيراً نحتفى به قد يفضى إلى عواقب وخيمة وأحـداث اليمـة ، وفـى ذلك تقص آيات سـورة الكهف قـول الخضر :

«أما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخـذ كل سفينة غـصبا . وأمـا الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفرا . فأردنا أن يبدلهما ربهمـا خيراً منه زكاة وأقـرب رحما . وأما الجـدار فكان لغلامين يتيمـين فى المدينة وكان تحته كنز لهـما وكان أبوهما صـالحاً فأراد ربـك أن يبلـغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك» (١)

فالقاعدة العامة أن رسل الله لا علم لهم بما فى صحف الغيب وبعضهم أعلن ذلك :

نوح عليه السلام **«ولا أقول لكم عندى خـزائن الله ولا أعلم الغيب . . »** (٢)

ومحمد عليه الصلاة والسلام **«قل لا أقول لكم عـندى خزائن الله ولا أعلم الغيب . . »** (٣)

(١) سورة الكهف – الآيات من ٧٩ – ٨٢
(٢) سورة هود – آية ٣١
(٣) سورة الأنعام – آية ٥٠

أما الاستثناء على هذه القاعدة فلا يتم إلا لحكمة يقدرها الله دونما اعتبار لرغبات الرسول أو تطلعاته ، فما يتاح له قد لا يكون ضمن دائرة اهتماماته ، وما يتلهف لمعرفته قد يظل بعيد المنال ، أما الملك حامل الوحى فهو الآخر مجرد مبلغ لا شأن له بشكل الرسالة أو مضمونها أو توقيتها .

وعلى ذلك فالوحى الذى يمتاز به الرسول على غيره من البشر لا يفتح له صفحات الغيب يطلع منها على ما يشاء ، وإنها إن كانت محظورة على عامة البشر فهى كذلك على سائر الرسل .

اثر الوحى

على علم الرسول بما فى دنيا الغيب

مـرة أخرى نواجـه السؤال عن قـدرة رسل الله على الاطلاع على دنيا الغـيب ، بكل ما تشـتمل عليه مـن بعث وجزاء وجنة ونار، بمعنى آخر : هل بعـد اتصال الوحى بالرسول ترتفع أسـتار ذلك العالم وتتكشف لرسل الله معـالمه كلها ، أم أنه يأخذ حكم العلم بما فى صحف الغـيب فتكون القاعدة هى الحظر والاسـتثناء هو الإباحة ، أم أن لرسل الله - حسبما قرر الأستاذ الإمام محمد عبده - مرتبة خاصة يشرفون منها على الغيب ويكونون فيها على نسبة من العالمين : نهاية الشاهد وبداية الغائب [1]

فى تحديد الإجابة على هذه التساؤلات ، فلو رجعنا إلى القرآن الكريم والأحاديث الصحيحـة لما وجدنا ما يثبت أن رسل الله قد اطلعـوا أو كـان لهم حق الاطلاع على عـالم الغـيب ، أو إنهم أشرفوا أو كان لهم حق الإشراف عليه ، فـهو محظور عليهم كما هو محظور على غيرهم ، والقاعدة هنا صارمة وحادة لا اسـتثناء

(١) راجع رأى الأستاذ الإمام صفحة (٢١) حيث أوردناه كاملا وأرجأنا مناقشته آنذاك .

فيها ولا محاباة ، ولم يقل بغير ذلك أحد ، أما ما جاء به منفرداً الأستاذ الإمام محمد عبده فإنه لا يعدو أن يكون تركيبات لغوية جيدة السبك لم يقم عليها أى دليل ، وربما يكون قد صاغها تحت تأثير إحساس مفترض بأن تبليغ رسل الله للرسالة لا يتم بإيمان دون حد اليقين ، ولأن كافة اتصالات الوحى بالأنبياء مسجلة فى كتب العقائد ، وهى لا تحتوى على ما يشير إلى أن الاطلاع على الغيب قد أتيح لهم سواء كقاعدة أو كاستثناء فقد تخلص الأستاذ الإمام من المأزق بأن اختار لهم مكاناً علوياً يشرفون منه على الغيب ويكونون فيه على نسبة من العالمين ، نهاية الشاهد وبداية الغائب ، لكن ذلك ليس صحيحاً ، فالسبل إلى عالم الغيب إن كانت موصدة فى وجه عامة البشر فإنها كذلك بالنسبة لسائر الرسل ، فحواسهم كبشر لم تنفعهم والوحى الذى يمتازون به لم يسعفهم . . ويضعنا ذلك من جديد فى مواجهة السؤال الآتى :

إذن كيف يصل إيمان الرسل بالغيب إلى حد اليقين أو عين اليقين ؟ أم إنهم قد حذروا من نار وبشروا بجنة وهم غير موقنين من وجودها ؟

قد يقول قائل : إن يقين النبى يكتمل بالمعجزة التى تجرى على يديه ، فطالما أن المعجزة - على ما سلف بيانه - هى الوسيلة المختارة لإقناع المرسل إليهم بوجود عالم آخر ، فهى من باب أولى صالحة لإقناع الرسول نفسه ، لكن ذلك ليس صحيحا ، إذ

يلزم التفرقة بين :

البشر بصفة عامة : وهؤلاء لا يتصل الوحى بهم وتقدم لهم المعجزة كدليل على صدق دعوى الرسول ، فعليهم الامتثال والطاعة ، ومثقال حبة من خردل من الإيمان هنا ينجيهم من عذاب النار يوم القيامة .

ورسل الله : وهؤلاء لا يعقل أن يكون إيمانهم بالغيب كإيمان المرسل إليهم دون حد اليقين ، كما أن اتصال الوحى بهم يزيد بالقطع من تشوقهم إلى مزيد من الرؤية والاطلاع .

ولعل ما أورده الفخر الرازى فى تفسير قوله تعالى **«وإذ قال إبراهيم رب أرنى كيف تحيى الموتى»** ما يوضح أن أثر المعجزة يقتصر على المرسل إليهم ، أما الرسول فهو فى حاجة إلى دليل خاص به ، وذلك إذ يقول :

الوجه الخامس : ما خطر ببالى قلت ، لاشك أن الأمة كما يحتاجون فى العلم بأن الرسول صادق فى ادعائه الرسالة إلى معجز يظهر على يديه ، فكذلك الرسول عند وصول الملك إليه وإخباره إياه بأن الله بعثه رسولا ، يحتاج إلى معجز يظهر على يد ذلك الملك ليعلم الرسول أن ذلك الواصل ملك كريم لا شيطان رجيم ، وإذا كان كذلك فلا يبعد أن يقال إنه لما جاء الملك إلى إبراهيم وأخبره بأن الله تعالى بعثك رسولا إلى الخلق طلب

المعجزة فقال « **رب أرنى كيف تحيى الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى**» على أن الآتى ملك كريم لا شيطان رجيم (١)

فالرسول بشر مثلنا ، يمارس حياته فى حدود ما تتيحه حواسه. لكن ملك الوحى يلم به فجأة ، فيستسلم لتأثيره القاهر، وتتلاشى صفته البشرية لتسود صفته النبوية طوال مخالطة الوحى له ، لكنه ما أن يفصل عنه حتى تعود صفته البشرية من جديد فينطق بما يجده منقوشاً فى صدره من معارف لم يكن لحواسه شأن فى اكتسابها ولم يكن لإرادته دور فى تحديدها ، وعندئذ قد تتوافر مبررات معقولة لاحتمال أن يتساءل النبى ، لا عن ظاهرة الوحى - التى أوضح لنا الأستاذ مالك كيفية اقتناعه بها - بل عن كل هذا الذى يأتى به الوحى عن البعث والحساب والجنة والنار .

فهو بشر ، لا يتحقق له العلم اليقينى إلا بوسائله الحسية .

وهو رسول ، عليه اقناع المرسل اليهم بوجود الغيب ، وافتقاده هو نفسه للدليل المادى على ما يدعيه ويلح عليه من شأنه إضعاف موقفه ، والوحى الذى يوافيه ليس كما يبدو للوهلة الأولى امتيازاً فذاً يتيح له العلم بما يشاء ، فهو يأتى ليبلغ لا لينصت ، وليقول لا ليقال له ، وحضوره يتم فى الغالب لإرساء مبادىء العبادات والمعاملات وتحديد الحلال والحرام ، أما هموم الرسول الشخصية

---

(١) تفسير الفخر الرازى ، الجزء الثانى - صفحة ٢٤٣

واهتماماته الذاتية فعليه أن يتحملها وحده كبشر ، وأن يواجهها بما أتيح له من قوى وحواس .

فهل اقتنع رسل الله بما يصلهم من أنباء عن الغيب ؟

أم إنهم قد تمردوا على عجز حواسهم وتجاوزوا إعراض الوحى عن مناجاتهم ، وتطلعوا - من جانبهم - ونشطوا - بإرادتهم - للنفاذ من بين أستار الغيب ، ليس فحسب تثبيتاً لإيمانهم به بما يتلاءم ومكانتهم ، بل ودعماً لمصداقيتهم أمام المرسل اليهم .

قد تتعذر الإجابة على ذلك ما لم نرجع إلى كتاب الله نستعرض من خلاله قصص الأنبياء حسبما بينتها آياته الكريمة ، ابتداء بإبراهيم عليه السلام وانتهاء بأصحاب الرسالات الثلاث الكبرى .

إبراهيم عليه السلام

وردت قصة إبراهيم عليه السلام شبه كاملة فى أكثر من سورة هى «البقرة - الأنعام - مريم - الأنبياء - الشعراء - الصافات - الزخرف - الممتحنة» وقد عنيت كل سورة بناحية خاصة من القصة أو اهتمت بالتركيز على جانب معين منها ، له بالهدف العام للسورة صلة .

وباستعراض عدة آيات من بعض السور فإنه يمكن الإلمام بالجزء الذى يعنينا من القصة وفصله إلى مراحل ثلاث مختلفة .

المرحلة الأولى : أو مرحلة التمييز والبحث ، وفيها اهتم إبراهيم بآلهة قومه وما يعبدون ، رآهم ينحتون من الحجر أصناماً يعكفون عليها ، يعتقدون أنها تضر وتنفع ، ويرون أنها تعطى وتمنع ، وقد انتهى إلى فساد رأيهم وضلال اعتقادهم ، وفى موقف الرفض هذا نقرأ قوله تعالى **«وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناماً آلهة إنى أراك وقومك فى ضلال مبين»** (١)

المرحلة الثانية : أو مرحلة السعى للإيمان ، وفيها سار إبراهيم على نهج العلم الحديث ، فهو بعد الشك فيما عليه قومه بدأ

---

(١) سورة الأنعام - آية ٧٤

البحث عن الإله الجدير بالعبادة ، وهو عليه السلام قد تطلع من قبل إلى لمعان النجوم فى جوف السماء وشاهد بزوغ القمر وسباحته فى الآفاق ، كما عاين آلاف المرات شروق الشمس وسطوعها فى الصباح ، لكن ذلك كله تم من خلال النظرة العارضة التى تستقبل فيها العين ما يطالعها من مشاهد فى استسلام وسلبية ، أما الآن وهو يبدأ الدراسة فإنه يتطلع إلى كل شىء تطلع الباحث المدقق كأنما يراه للمرة الأولى ، ويبدو أن تفكيره كان قد هداه إلى ضآلة الأرض وكل ما عليها ، وأن الإله الحق من ثم لا يلتمس إلا فى غيرها ، فتولى ببصره إلى السماء، وتصور الآيات ما حدث على النحو التالى :

«فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربى فلما أفل قال لا أحب الآفلين» (١)

«فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربى فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين» (٢)

والمستفاد من ذلك :

١ – أن إبراهيم عليه السلام قد اعتمد فى بحثه على التجربة والمشاهدة مستعيناً بوسائله الحسية المتاحة .

٢– أن السعى لبلوغ الحقيقة المجردة كان هدفه ، لذلك فهو لا

---

(١) سورة الأنعام – آية ٧٦ (٢) سورة الأنعام – آية ٧٧

يتحمس لرأى ارتآه ، إنما يخضعه للتجربة دون ما جمود أو تعصب .

٣- أنه أحس بفطرته السليمة أن وسائل البشر الحسية لا تكفى لبلوغ الحقيقة ، وأن عليه أن يلتمس العون والهداية من الإله الذى يسعى للوصول إليه فقال «**لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين**» قال ذلك ولم يقعد فى انتظار الهداية ، وإنما واصل البحث من جديد . . «**فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر فلما أفلت** . . » علم أن كل ما تصافحه العين ، من النجم العظيم إلى الجمرة الصغيرة ، من الصخر الأصم إلى النبتة الضعيفة ما هو إلا من صنع خالق واحد . . وإذ ذاك غشيته رحمة الله فنقشت على صفحة فؤاده . . أنما هو إله واحد وخالق واحد فقال « . . **إنى برىء مما تشركون . إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين**» (١)

المرحلة الثالثة : أو مرحلة الدعوة إلى الإيمان ، وفيها بدأ الصراع بين الحق والباطل ، بين التوحيد والشرك ، وقد بدأها إبراهيم بالموعظة الحسنة يسديها إلى أبيه ، وآيات سورة مريم تصورها أبلغ تصوير «**واذكر فى الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبيا . إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئاً . يا أبت إنى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك**

---

(١) سورة الأنعام - آية ٧٨ ، ٧٩

فاتبعنى أهدك صراطاً سويا. يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصيا» [1]

لكن أباه لم يسمع ولم يعقل ورد مزمجراً متوعداً **«لئن لم تنته لأرجمنك واهجرنى مليا»** [2] لكن تعنت الأب الكافر لم يمنع الابن المؤمن من معاودة الكَرَّة محاولاً بالحوار الذكى والحجة البالغة إقناع أبيه وقومه بإسلام الوجه لله وترك عبادة الأصنام ، وفى ذلك تسرد آيات سورة الشعراء **«إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون . قالوا نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين . قال هل يسمعونكم إذ تدعون . أو ينفعونكم أو يضرون . قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون»** [3]

وهكذا استدرجهم إلى الإقرار بسفههم وفساد تفكيرهم ، ثم اشتعل الجدل واشتدت المحاجاة حسبما صورته سورة الأنعام فى قوله تعالى **«وحاجه قومه قال أتحاجونى فى الله وقد هدان . . وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا . .»** [4]

ورأى إبراهيم أن مشاعر قومه الغافلة لن توقظها إلا صدمة قوية ، وأن عقولهم الخاملة لن تنتبه إلا بلطمة قاسية فحطم أصنامهم وهو يعلم أن الاتهام سيوجه إليه ، وبعد أن جاءوا به

---

(١) سورة مريم - الآيات من ٤١ - ٤٤
(٢) سورة مريم - آية ٤٦
(٣) الآيات من ٧٠ - ٧٤
(٤) آية ٨٠ ، ٨١

سألوه حسبما تبين سورة الأنبياء :

«آأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم» (١)

وكان قد ترك صنماً كبيراً دون تحطيم فأشار إليه وقال :

« بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون » (٢)

ونجحت خطته ، فبدا لهم سوء عملهم إذ يقدسون ما ينحتون **« فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون »** (٣)

لكن طبيعتهم الفاسدة غلبت عليهم **«ثم نكسوا على رءوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون»** (٤)

وسارع إبراهيم إلى استغلال الفرصة فسألهم **«أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم»** (٥) لكن البلادة فى أعين القوم كانت تؤكد أن فى آذانهم وقرا ، وأن على قلوبهم أكنة ، فنهرهم إبراهيم قائلا **«أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون»** (٦)

«قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين . قلنا يانار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم» (٧)

ذلك هو فى إيجاز الجزء الأول من قصة إبراهيم كما صوره لنا

---

(١) آية ٦٢ (٢) آية ٦٣ (٣) آية ٦٤
(٤) آية ٦٥ (٥) آية ٦٦ (٦) آية ٦٧
(٧) آية ٦٨ ، ٦٩

القرآن الكريم ، وهو يؤكد أن إيمانه لـم يكن هدية ألقيت إليه من السماء ، بل كان نتيجة لسعى دائم بذله ولجهد متصل لم يبخل به، كما يبين أنه عليه السلام سواء قبل بعثته أو بعدها كان نافذ البصيرة متوقد الذكاء ، قوى الحجة ساطع البرهان . كذلك توضح أحداث ذلك الجزء من القصة لما اتخذ الله إبراهيم خليلا، فها نحن حيال نموذج فريد من البشر يقدم لنا القدوة فى رفض الانقياد الأعمى لنهج الآباء والعامة . ويحدد السبيل الأقوم لما يجب أن تنصرف إليه الحواس ، ثم هو يعرض لنا المنهاج الأمثل فى المواءمة بين استنفاد الطاقة البشرية وبين الاستعانة بالله والتماس الهداية منه .

ولننتقل بعد ذلك إلى مواقف أخرى صورها القرآن الكريم تساعد على تحديد الملامح الشخصية لهذا الرسول الكريم .

تسجل الآيات (٢٥٨، ٢٥٩ ، ٢٦٠) من سورة البقرة ثلاثة مشاهد ، الأول والثالث منها لإبراهيم عليه السلام ، والثانى لعبد من عباد الله ، وتجرى الآيات الثلاث على النحو التالى :

« ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربى الذى يحيى ويميت قال أنا أحيى وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر والله لا يهدى القوم الظالمين » .

« أو كالذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها قال أنّى يحيى هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوماً أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحماً فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير» .

«وإذ قال إبراهيم رب أرنى كيف تحيى الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعياً واعلم أن الله عزيز حكيم» .

وتتحدث الآية الأولى عن حاكم كفر بأنعم الله واغتر بما بين يديه من جاه وسلطان فلما بلغته دعوة إبراهيم استدعاه وسأله (من ربك ؟) .

قال **«ربى الذى يحيى ويميت»** .

امتلأ قلب الملك الكافر ثقة كاذبة ورد باستعلاء أجوف **«أنا أحيى وأميت»** وجاء حسبما قرر بعض المفسرين ببرىء فأمر بقتله وبمحكوم عليه بالموت فأخلى سبيله .

قال إبراهيم **«فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب»** .

فبهت الملك المكابر ولم ينطق .

ويؤكد هذا الموقف ما سلف بيانه من صفات لإبراهيم عليه السلام ويزيدها وضوحاً ، فهو يجسد فطنته فى إعراضه الذكى عما يحتمل الخلاف إلى مالا يحتمل ، وهو يؤكد أن قدرته على الجدال ليست إلا صدى لقوة يقينه ، وأن طاقته على المحاجاة ليست إلا انعكاساً لثبات عقيدته ورسوخ إيمانه .

وعلى ذلك المنوال تضطرد آيات الكتاب الكريم ، فهى تبين أن إيمان إبراهيم عليه السلام لم يكن إيماناً مفروضاً ، ولا كان وليداً لصدفة لاحت أو لظروف طرأت بل هو إيمان متين له قواعد ثابتة من الأدلة العقلية ، وأسانيد راسخة من القناعة الشخصية ، وكافة مواقف إبراهيم عليه السلام فى القرآن الكريم تؤكد ذلك المفهوم وتدعمه فيما عدا الآية الثالثة التى خرجت عن هذا الإطار ونسبت لإبراهيم عليه السلام موقفاً يتعارض مع كل ما سلف له من صفات ويتنافى مع ما فى قلبه من ثقة بالله واطمئنان إلى قدرته ، وهى تجرى على النحو التالى :

« وإذ قال إبراهيم رب أرنى كيف تحيى الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى . . »

ولحسن الحظ فلقد أثار هذا الموقف فضول المفسرين واهتمامهم ، ولأن رؤية إحياء الموتى ليست من شأن البشر ، ولأنه ليس ثمة

فائدة يمكن أن تعود عليهم منها ، فقد ركز المفسرون الأضواء على هواجس إبراهيم ودوافعه لرؤية إحياء الموتى ، وفى هذا الصدد فإن أبحاثهم دارت حول مفهوم (الشك) وانحصرت فى نطاقه ، انبرى بعضهم لإثباته ، وتحمس آخرون لنفيه ، ووقف فريق ثالث منه موقفاً وسطاً ، ولأهمية الأمر من جهة ولتناقض (الشك) مع صفات إبراهيم من جهة أخرى فلا مفر من استعراض ما سطره المفسرون على وجه التفصيل :

ومن الذين قالوا إن إبراهيم عليه السلام قد شك : الطبرى ، وفى تفسير قوله تعالى «وإذ قال إبراهيم رب أرنى كيف تحيى الموتى . .» يسرد آراء الآخرين على النحو التالى ، يقول :

اختلف أهل التأويل فى سبب مسألة إبراهيم ربه أن يريه كيف يحيى الموتى ؟

فقال بعضهم : كان مسألته ذلك ربه ، أنه رأى دابة قد تقسمتها السباع والطير ، فسأل ربه أن يريه كيفية إحيائه إياها مع تفريق لحومها فى بطون طير الهواء وسباع الأرض ليرى ذلك عيانا فيزداد يقينا برؤيته ذلك عيانا إلى علمه به خبرا . .

وقال آخرون : بل كان سبب مسألته ربه ذلك المناظرة والمحاجة التى جرت بينه وبين نمروذ فى ذلك . .

وقال آخرون : بل كانت مسألته ذلك ربه عند البشارة التى أتته من الله بأنه اتخذه خليلا ، فسأل ربه أن يريه عاجلاً من العلامة له على ذلك

ليطمئن قلبه .

وقال آخرون : قال ذلك لربه لأنه شك فى قدرة الله على إحياء الموتى

وبعد ذلك يوضح الطبرى رأيه فيقول : واولى هذه الأقوال بتأويل الآية : ما صح به الخبر عن رسول الله ﷺ أنه قاله ، وهو قوله «نحن أحق بالشك من إبراهيم ، قال رب أرنى كيف تحيى الموتى . قال أو لم تؤمن» وأن تكون مسألته ربه ما سأله أن يريه من إحياء الموتى لعارض من الشيطان عرض فى قلبه ، كالذى ذكرنا عن ابن زيد آنفا من أن إبراهيم لما رأى الحوت الذى بعضه فى البر وبعضه فى البحر قد تعاوره دواب البر ودواب البحر وطير الهواء ، ألقى الشيطان فى نفسه فقال : متى يجمع الله هذا من بطون هؤلاء ؟

فسأل إبراهيم حينئذ ربه أن يريه كيف يحيى الموتى ليعاين ذلك عياناً ، فلا يقدر بعد ذلك الشيطان أن يلقى فى قلبه مثل الذى ألقى فيه عند رؤيته ما رأى من ذلك، فقال له ربه « أو لم تؤمن » يقول : أو لم تصدق يا إبراهيم بأنى على ذلك قادر ، قال : بلى يارب ، لكن سألتك أن ترينى ذلك ليطمئن قلبى ، فلا يقدر الشيطان أن يلقى فى قلبى مثل الذى فعل عند رؤيتى هذا الحوت» (١)

ومن الذين ينفون الشك عن إبراهيم عليه السلام ابن عطية والقرطبى ، وفى تفسير الآية الكريمة يقول القرطبى :

اختلف الناس فى هذا السؤال هل صدر من إبراهيم عن شك أم لا ؟ فقال الجمهور : لم يكن إبراهيم عليه السلام شاكا فى إحياء الله الموتى ،

---

(١) تفسير الطبرى – جزء ٣ . صفحة ٤٧ وما بعدها

وإنما طلب المعاينة ، وذلك أن النفوس مستشرفة إلى رؤية ما أخبرت به ، ولهذا قال عليه السلام «ليس الخبر كالمعاينة» وقال الحسن وقتادة وسعيد بن جبير والربيع : سأل ليزداد يقيناً إلى يقينه» .

ثم ينقل القرطبى عن ابن عطية ما نصه :

وترجم الطبرى فى تفسيره فقال : وقال آخرون سأل ذلك ربه ، لأنه شك فى قدرة الله تعالى ، وأدخل تحت الترجمة عن ابن عباس قال : ما فى القرآن آية أرجى عندى منها . . قلت - الكلام مازال لابن عطية - وما ترجم به الطبرى عندى مردود ، وما دخل تحت الترجمة متأول ، فأما قول ابن عباس « هى أرجى آية» فمن حيث فيها الإدلال على الله تعالى وسؤال الإحياء فى الدنيا وليست مظنة ذلك . ويجوز أن يقول :

هى أرجى آية لقوله «أو لم تؤمن» أى أن الإيمان كاف لا يحتاج معه إلى تنقير وبحث . وأما قول عطاء «دخل قلب إبراهيم بعض ما يدخل قلوب الناس» فمعناه من حيث المعاينة على ما تقدم . وأما قول النبى ﷺ «نحن أحق بالشك من إبراهيم» فمعناه أنه لو كان شاكاً لكنا نحن أحق به ونحن لا نشك فإبراهيم عليه السلام أحرى ألا يشك . فالحديث مبنى على نفى الشك عن إبراهيم . . وإحياء الموتى يثبت بالسمع وقد كان إبراهيم عليه السلام أعلم به ، ويدلك على ذلك «ربى الذى يحيى ويميت» فالشك يبعد على من تثبت قدمه فى الإيمان فقط فكيف بمرتبة النبوة والخلة . والأنبياء معصومون من الكبائر ومن الصغائر التى فيها رذيلة إجماعاً ، وإذا تأملت سؤاله عليه السلام وسائر الفاظ الآية لم تعط شكاً ، وذلك أن الاستفهام بكيف إنما هو سؤال عن حالة شيء موجود متقرر الوجود عند السائل والمسئول. نحو قولك كيف علم زيد ؟ وكيف نسج الثوب ؟ ونحو هذا .

ثم يعقب القرطبى على ما سلف فيقول :

هذا ما ذكره ابن عطية وهو بالغ ، ولا يجوز على الأنبياء صلوات الله عليهم مثل هذا الشك فإنه كفر والأنبياء متفقون على الإيمان بالبعث ، وقد أخبر الله تعالى أن أنبياءه وأولياءه ليس للشيطان عليهم سبيل فقال : إن عبادى ليس لك عليهم سلطان. وإذا لم يكن له عليهم سلطان فكيف يشككهم ، وإنما سأل أن يشاهد كيفية جمع أجزاء الموتى بعد تفريقها وإيصال الأعصاب والجلود بعد تمزيقها فقوله «أرنى كيف . .» طلب مشاهدة الكيفية قال «بلى ولكن ليطمئن قلبى» أى سألتك ليطمئن قلبى بحصول الفرق بين المعلوم برهاناً والمعلوم عياناً والطمأنينة اعتدال وسكون . وطمأنينة القلب هو أن يسكن فكره فى الشيء المعتقد والفكر فى صورة الإحياء غير محظور (١)

ومن الذين وقفوا من الآية موقفاً وسطاً ابن كثير فهو يقول فى تفسيره :

ذكروا لسؤال إبراهيم عليه السلام أسباباً منها أنه لما قال لنمروذ «ربى الذى يحيى ويميت» أحب أن يترقى من علم اليقين إلى عين اليقين وأن يرى ذلك مشاهدة . . وقال البغوى إن كلام إبراهيم فيه إعلام أن المسألة منه عليه السلام لم تعرض من جهة الشك ولكن من قبل زيادة العلم بالعيان، فإن العيان يفيد من المعرفة والطمأنينة ما لا يفيده الاستدلال (٢)

وكذلك الزمخشرى إذ يقول :

---

(١) تفسير القرطبى - الجزء الثالث – صفحة ٢٩٧ وما بعدها
(٢) تفسير ابن كثير - جزء أول – صفحة ٣١٥

أرنى «بصرنى» فـإن قلت كيف قال له أو لم تـؤمن وقد علم أنه أثبت الناس إيمانا قلت ليجيب بما أجاب به لما فيـه مـن الفائدة الجليـلة للسامعـين و «بلى» إيجاب لما بعـد النفى معناه بلى آمنت «ولكن ليطمـئن قلبى» ليزيد سكونا وطمأنينة بمضامة علم الـضرورة علم الاستدلال . وتظـاهـر الأدلـة أسـكن للقلوب وأزيد للبصيرة واليقين ، ولأن علم الاسـتدلال يجـوز معـه التشكيك بخـلاف العلم الضرورى فأراد بطمـأنيـنة الـقلب العلم الـذى لا مجال فيه للتشكيك (١)

ولعله من المناسب بعد ذلك أن نستعـرض رأى أحد المعاصرين فى تفسير الآية ، وهو فـضيلة الشيخ محمد مـتولى الشعراوى . والرأى ورد ضمن سلسـلة المحاضرات التى ألقيـت بمـركز الإعلام الدينى بسفارة جمهورية مصـر بالجزائر خلال شهر رمضان المبارك عام ١٣٩٠ هـ نوفمبر ١٩٧٠ ، يقول فضيلته :

مـثـلا إبراهيم خليل الله ورسـوله كـان أول المؤمـنين به وأول المؤمنين المعتقدين بكل صفاته ، وأنه هـو الذى أوجد وهو الـذى يميـت وهـو الذى يبعث ويجازى ويحـاسب ، يعتقد هذا ، إذن فهذه العـقيدة ليس لإبراهيم مزيد عليهـا ، ولكن إبراهيم عليه السلام ظن أنه من كمال العـقيدة فى أن الله يحيى الموتى ، أن يعلم هذه الكيـفية التى يحيى بهـا الموتى ، هذا أمر زائد عن الاعتـقاد ، إذن فالاعـتقاد يكفيك أن تـعلم أن الله قادر على أن يحيى الموتى ، أمـا أن تعرف كيف ، فـأنت تريد إذن أن تتعلم منه إحـياء الموتى . لذلك كان هذا اللون لم يستره القرآن عنا ، لا ليعطـينا شيئا عـن

(١) تفسير الزمخشرى . جزء أول – صفحة ١٢٠

تاريخ إبراهيم ، وإنما ليعطينا عنه العبـرة بما جاء على لسان إبراهيم حتى لا يتكرر مثل ذلك من إدخال عنصر فى العقيدة هو ليس منها .

ثم يضيف:

إن إبراهيم لم يقل يارب «أتحيى الموتى؟» إنما قال «كيف تحيى الموتى ؟» فالسؤال بكيف يقتضى بأن الحدث مسلم به موجود ، كما أقول كيف بنيت هذا البيت ؟ إذن فأنا لا أسأل عن بناء البيـت فالبيت مبنى أمامى ، وأقـول كيف صنعت هذه القـصيدة ؟ فالقـصيدة موجودة أمـامى فأنا لا أشك فى الحدث ، وإنما الذى أريده كيف صنعت وكيف بنيت ؟ والذى يريده إبراهيم « كيف تحيى الموتى » إذن فقوله « أو لم تؤمن » أى بأنى أحيى الموتى. قال هذا القـدر موجـود والحمـد لله . أؤمن أنك تحـيى الموتى ولكن أنا طالب الكيفية .

ذلك هو مجمل ما ورد من أقـوال فى تفسير الآية الكريمة «وإذ قـال إبراهيم رب أرنى كـيف تحيى المـوتى . . » والآراء كمـا هو واضح تنقسم إلى :

١- إن إبراهـيم قـد داخـله بعض الـشك ، فطلـب أن يرى ليـتأكـد، أى إن شـك إبراهيم كان يمثل مـشكلة خـاصة «قـول الطبرى» .

٢- إنه قد دخل قلب إبراهيم بـعض ما يدخل قلوب الناس ، أى أن شكه كان يمثل مشكلة إنسانية عامة «قول عطاء» .

٣- إن إبراهيم عليه السلام لم يكن شاكا فى قدرة الله ، وإنما

طلب الرؤية من قبل زيادة العلم بالعيان كى يترقى من علم اليقين إلى عين اليقين «قول الجمهور» .

٤- ما انفرد به فضيلة الشيخ الشعراوى من أن إبراهيم ظن أنه من كمال العقيدة أن يتعلم كيفية إحياء الموتى ، وهو أمر زائد عن الاعتقاد ، أوضحه القرآن الكريم حتى لا نقع فى مثله بإدخال عنصر فى العقيدة ليس منها .

فما هى حقيقة الأمر ؟ وهل ناقض إبراهيم نفسه فى ذلك الموقف ؟ وهل ما صدر عنه كان عن شك فى قدرة الله ؟

للإجابة على هذه التساؤلات لابد من الإشارة إلى حديثين تعلقا بالآية الكريمة وارتبطا بها ، أولهما لرسول الله ﷺ والثانى لابن عباس ، وعند تفسيرها فإنه يتعين الالتزام بهما وإلقاء الأضواء عليهما وهو ما نحتاجه الآن :

الحديث الأول

ورد فى صحيح البخارى ومسلم أن رسول الله ﷺ قال : نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال رب أرنى كيف تحيى الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى ويرحم الله لوطا لقد كان يأوى إلى ركن شديد ولو لبثت فى السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعى .

ففى هذا الحديث الشريف رأى نبوى محدد فى بعض ما تعرض له الأنبياء نستعرضه بشىء من التفصيل وعلى غير الترتيب الذى جاءت به المواقف فى الحديث .

الموقف الأول : ليوسف عليه السلام وقد دخل السجن دون أن يقترف إثما أو يحمل وزرا ، ولبث فيه بضع سنين ثم جاءه رسول الملك ليخرجه من ظلمات السجن وضيقه إلى رحاب القصور ونعيم الملوك ، لكن يوسف لم يسارع إلى اهتبال الفرصة وقبول المنحة ، وصرف الرسول قائلا **«ارجع إلى ربك فسأله ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن . .»** (١)

وإزاء إصراره على رفض حرية تحوطها الشبهات وإعراضه عن أنصاف الحلول فقد تم استدعاء النسوة شهود المأدبة فقلن **«حاش لله ما علمنا عليه من سوء . .»** وأسقط فى يد المدعية فاعترفت **«الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين»** (٢)

وعن هذه القوة فى الحق والاستهانة بما يصيب الإنسان من غبن يحيى رسولنا الكريم أخاه يوسف ويعلى من شأنه فيقول إنه ﷺ لو مر بالتجربة ذاتها لسارع بالخروج من السجن قبل أن يهتم بنفى اتهام ظالم أو إثبات براءة مستحقة .

الموقف الثانى : للوط عليه السلام وقد استضاف رجلين ذوى

---

(١) سورة يوسف - الآية ٥٠ (٢) سورة يوسف - آية ٥١

هيئة وبهاء ثم أحاط الفسقة من أهل المدينة بداره يريدون انتزاع الضيفين ، كانوا كثرة وكانوا عصبة ، وهو فرد وحيد ، وإنها لكبيرة ألا يحمى الرجل ضيفه ، وإنه للذل والهوان أن يستباح حماه ، فقال معبراً عن عجزه وأساه : **لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد** [1]

وعن يأس لوط الذى لم يكن له مبرر وشكواه القائمة على غير أساس يدعو رسولنا المصطفى له بالرحمة ، فالضيفان كانا ملكين هبطا من السماء على هيئة البشر لإنزال العذاب بالقوم الفاسقين .

الموقف الثالث : لإبراهيم عليه السلام وهو يطلب رؤية إحياء الموتى ،وعنه يقول رسولنا الكريم «نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال رب أرنى كيف تحيى الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى »

فلقد تعلق سؤال إبراهيم بما يقع فى نطاق الغيب ويتعين الإيمان به دون دليل ، أما التبرير الذى قدمه « ليطمئن قلبى » فإنه كشف عن وجود قلق وحيرة فى صدره ، وأن سكون هذا القلق وزوال تلك الحيرة لن يتم إلا برؤية إحياء الموتى .

والأصل أن التطلع إلى دليل مادى «كالمعاينة» على أمر غيبى «كالبعث» يمثل عرضاً يلحق بالإيمان ، ممكن أن يصيب عامة البشر

---

(١) سورة هود - آية ٨٠

وخاصتهم ، يراودهم ويصدونه ويناوئهم ويدفعونه ، ويكون صمودهم له على قدر درجاتهم . ولقد افترض رسولنا الكريم - تواضعاً منه - أنه في البراءة من هذا العرض والمناعة منه يأتى فى المرتبة الثانية ، أما المرتبة الأولى فهى لإبراهيم الذى اتسم سعيه إلى الإيمان بإيجابية لم تؤثر عن أى من البشر عامة أو الرسل خاصة ، والذى شرع يدعو إلى الإيمان لا تحرجه صلة رحم ولا يردعه تحدي مجتمع جاهل ولا يخيفه التصدى لحاكم ظالم ، فإذا ما كشف إبراهيم بعد كل هذه الدلائل عن أن قلبه لم يكن مطمئنا ويقينه لم يكن مستقراً فإن من يليه فى المرتبة أولى أن يتساءل وأحق أن يشك .

فهذا الحديث الأول لرسول الله ﷺ الذى ارتبط بالآية الكريمة يدور فى مجمله حول نوازع بشرية غلبت على تصرفات بعض الأنبياء ، فى واحد منها تحقق الضعف فعلا فى جانب لوط ، إذ افتقد القوة وهو فى عرينها والتمس الحماية وهو فى كنفها ، بينما لم يتحقق الضعف فى الثانى ، بل افترض محمد صلوات الله وسلامه عليه أنه لو مر بتجربة يوسف لما صمد صموده ولقبل الدعوة الأولى للخروج من السجن ، وأكرر أن هذا الافتراض هو فرط أدب وكرم من محمد صلوات الله وسلامه عليه ، يتواضع فيه لأقصى حد كى يعلى من شأن يوسف لأقصى حد ، ويكفى أنه فى عنفوان الاضطهاد له ولأصحابه عرض عليه قومه الملك

والرفعة والمال ليدعهم وآلهتهم فما لان ولا هادن ولا حاد عن سبيل الله .

أما فى الموقف الثالث . . فقد غلبت المشاعر البشرية على أبى الأنبياء وخليل الرحمن الذى افترض محمد صلوات الله عليه أنه أقوى البشر إيماناً وأعلاهم يقيناً ، وهنا أيضا يتواضع رسولنا الكريم مرة ثانية ليرفع الحرج عن إبراهيم فقال «نحن أحق بالشك منه . .» أى أنه لم يكن بوسع بشر آخر أن يطمئن بالإيمان قلبه دون أن يطلب ما طلبه إبراهيم . لأنه لو جاز لمن نظر وتدبر وقطع معظم الطريق إلى الله قبل أن ينزل عليه الوحى أن يلتمس دليلاً يستكمل به اطمئنان قلبه لكان الذى نزل عليه الوحى دون ترقب أو انتظار أولى أن يلتمس ذلك الدليل .

الحديث الثانى

ما ورد عن ابن عباس ، وقد أثبته القرطبى فى تفسيره ، لكن ابن كثير جاء به مفصلاً على النحو التالى :

التقى عبدالله بن عباس وعبدالله بن عمرو بن العاص فقال ابن عباس لابن عمرو : أى آية فى القرآن أرجى عندك ؟ فقال عبدالله ابن عمرو : قول الله عز وجل **«قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله . .** الآية**»** فقال عبدالله بن عباس لكن أنا أقول : قول الله عز وجل : **« وإذ قال إبراهيم رب أرنى**

كيف تحيي الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى » فرضى من إبراهيم قوله « بلى » قال : فهذا لما يعترض النفوس ويوسوس به الشيطان [1]

وللوهلة الأولى ، فإن اختيار ابن عباس قد يبدو مجافياً للمنطق ، ففى القرآن الكريم آيات كثيرة تصف الله عز وجل بأنه : الغفور ، والرحيم ، والتواب ، والكريم ، وفيه الآية التى اختارها عبدالله بن عمرو **«قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم»** [2]

فلماذا يترك عبدالله بن عباس ذلك كله ليقف حيال آية «وإذ قال إبراهيم رب أرنى كيف تحيي الموتى» ليقرر أنها - وهى الخالية من صفات الرحمة أو المغفرة - أكثر آيات الكتاب الكريم دلالة على رحمة الله وأفسحها لأمل البشر فى عفوه ومغفرته ؟

إن الإضافة التى تكمل حديث ابن عباس تعتبر مفتاح فهمه للآية الكريمة ، فهو يقول : « فهذا - أى قبول الله عز وجل لسؤال إبراهيم واستجابته لطلبه - لما يعترض النفوس ويوسوس به الشيطان » .

---

(١) تفسير ابن كثير . الجزء الأول - صفحة ٣١٦
(٢) سورة الزمر - آية ٥٣

وابتداء فإن ما يعتـرض النفوس ويوسوس به الشيطان لا يمكن أن يمس جانب الإيمان بوجود الخالق ووحدانيته ، فالشك أو التردد فى هذا الجانب محظور سواء على البشر أو علـى الرسـل ، ولأن الأدلة على هذه الدعوى أكثر من أن تحـصى فإن طلب المزيد منها مرفوض . أما الإيمان بالبعث والحـساب والجنة والنار فذلك ما لا دليل عليـه وبالتـالى تمارى النفـوس فى قبـوله وتطعن وسـاوس الشيطان فى وجوده .

وعلى ما يبـدو من حديث ابن عباس فإن الإيمـان بوجود عالم الغيب يمثل - ليس بالنسبة له خاصة بل ولغـيره من البشر عامة - الجانـب الرخو من الإيمان ، فـافتـقاد هذا الجـانب للدليل المادى وقيامه على الأحاسيس الفطرية وحدها يمكن أن يؤدى إلى زعزعة أركانه بين الحين والحين ، لما يعـترض النفوس من نزغـات داخلية أو لما يلقيه الشـيطان من وساوس خارجية ، لكن ابن عـباس كان يعتقـد أن الاستسلام لذلك الضعف البـشرى هو الضلال المبين ، كان يخـشى إن ألم به تساؤل عن الـبعث وما بعـد الموت أن يثلم ذلك إيمانه أو يفسد عقـيدته ، لكن ها هو ذا إبراهيم عليه السلام يطرح التـساؤل ذاته فلا يواجـه بالرفض ولا يقابل بالاسـتنكار ، وهذه الحقيقة وحدها كانت كفيلة بأن تملأ قلب ابن عباس بالرضا والارتياح ، أما ما لم يكن يتوقعه فهو أن يجاب إبراهيم إلى طلبه ويرى ما يطمـئن قلبه ، فكأن الآية الكريمـة «وإذ قال إبراهيم رب

أرنى كيف تحيى الموتى . .» تقرر أن الخالق عز وجل «يراعى قدرات عباده وعجزهم عن الاستيعاب الكامل لوجود دنيا الغيب» وهو ما يمثل أعلى درجات الرحمة والعفو والمغفرة . . فكانت هذه الآية عند ابن عباس - وهو الحق - أرجى آية فى كتاب الله تفتح للبشر أبواب رحمة الله وتفسح لهم سبيلاً إلى عفوه ومغفرته لما فيها من قبول لما كان حرياً بالرفض ، ورضاً عما كان يستوجب السخط ، واستجابة لما كان ابن عباس يعتقد أنه لا يجب أن يطرح أو يناقش .

وفى ضوء ما سلف بيانه عن حديث رسول الله ﷺ وحديث ابن عباس فإن أقرب الآراء إلى الصحة فى تفسير قوله تعالى **«وإذ قال إبراهيم رب أرنى كيف تحيى الموتى»** هو ما ذهب إليه الجمهور من أنه عليه السلام لم يكن شاكاً فى قدرة الله ، وإنما طلب الرؤية من قبل زيادة العلم بالعيان كى يترقى من علم اليقين إلى عين اليقين ، غير أن هذا الرأى الراجح لم يوضح لنا لماذا طلب إبراهيم هذا الترقى وسعى إليه ، أو ما هى الفائدة التى تعود عليه منه ؟

الطبرى وحده تصدى لهذه التساؤلات فقرر : أن إبراهيم عليه السلام سأل ربه أن يريه كيف يحيى الموتى ليعاين ذلك عياناً فلا يقدر بعد ذلك الشيطان أن يلقى فى قلبه مثل الذى ألقى فيه عند

رؤيته ما رأى من ذلك ، فقال له ربه «أو لم تؤمن» يقول : أو لم تصدق يا إبراهيم بأنى على ذلك قادر ؟ قال : بلى يارب ، لكن سألتك أن ترينى ذلك ليطمئن قلبى فلا يقدر الشيطان أن يلقى فى قلبى مثل الذى فعل عند رؤيتى هذا الحوت .

فالطبرى يرى : أن الهدف الحقيقى لإبراهيم لم يكن دفع قلق وقتى أو طارىء ، بل التوقى - بدليل مادى - لما يمكن أن يثور فى النفس مستقبلاً عندما تتأزم الأمور أو يعرض لها ما تحار فيه الألباب .

فإبراهيم عليه السلام استدل على وجود الله ووحدانيته بسمعه وبصره وبالإقرار الأزلى المسطور فى فطرته ، فإيمانه فى هذا الجانب قائم على إدراك كامل ويقين ثابت ، لكن ماذا عن إيمانه بالبعث الذى يدعيه والحساب الذى يحذر منه والجنة التى يبشر بها والنار التى يخوف منها ؟ إنه يؤمن بوجودها ، لكنه لم يطلع ولم يعاين ، ومع ميله الغريزى لأسلوب التجربة والاستدلال فإنه لا يستقيم جانب من الإيمان مؤيد بالدليل الحسى مع جانب آخر يفتقر إلى هذا الدليل ، ومع ثراء نشاطه الذهنى فلابد للتساؤلات أن تتراكم وأن تثور ، فطلب رؤية إحياء الموتى كان صدى طبيعياً ومتوقعاً لعجز حواس إبراهيم عن اختراق حجب الغيب من جهة ، ولإحجام الوحى عن كشف غوامضه من جهة أخرى ، ومن ثم فلم يكن هناك بد من مبادرة يقدم عليها إبراهيم عليه

السلام يلتمس بها دليلاً على وجود الغيب لا يتسنى معه بعد ذلك للشك أن يتسلل إليه أو يقترب منه ، فكان طلبه رؤية إحياء الموتى ، وهو طلب نلمح فيه ذكاء إبراهيم وأدبه، فهو قد اختار الخطوة الأولى فى عالم الغيب وهى البعث، إن اطمأن إليها قلبه ، فإن اطمئنانه لما يليها من حساب وجزاء وجنة ونار يكون قد تحقق وزيادة .

هذه الوجهة من النظر فى تفسير قوله تعالى «وإذ قال إبراهيم رب أرنى كيف تحيى الموتى» تتأكد أكثر لو رجعنا إلى الآيات المتتابعات من سورة البقرة التى أوردناها من قبل :

فالآية الأولى تتحدث عن الذى حاج إبراهيم فى ربه ، والآية الثانية عن الذى مر على قرية خاوية ، والآية الثالثة هى التى انتهينا من بيانها آنفا .

فالآية الأولى والثالثة تخصان إبراهيم عليه السلام ، فلماذا جاءت الآية الثانية لتفصل بينهما بقصة الرجل الذى مر على القرية ؟

وتجرى الآية الثانية على النحو التالى « **أو كالذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها قال أنَّى يحيى هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوماً أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه**

وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحماً فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير » (١)

فالآية الكريمة تقص خبر رجل مر على أطلال قرية خربة خاوية ، كان يعرفها من قبل ، أو سمع كثيراً عن عمارتها بالدور وازدحام طرقاتها بالناس . . تقابلت الصورتان في مخيلته ، صورة الحياة النشطة الصاخبة وصورة السكون الثقيل المطبق وعندئذ ، واجه الرجل - وعلى غير انتظار - ذلك التساؤل الأزلي «أموت ثم بعث ثم نشر» وبدلا من الإجابة بالنفي فإنه طرح تساؤله الذي أكد إيمانه بوجود الله ، إلا أنه كشف عن عجزه عن تصور إمكانية البعث بعد الموت .

ولأنه لم يكن في تساؤله مستنكراً ولا مستهزءاً فقد أراه الله قدرته بترتيب نتائج مختلفة لظروف متشابهة ، وذلك بمثل ضربه له في نفسه وفيما يملك ، في نفسه بأن أماته مائة عام ثم بعثه ، وفيما يملك ، إذ ظل طعامه الميت طازجاً دون أن يفسد ، أما حماره الحي ، فهو الذي جرت عليه سنن الكون ، فقد شبع موتاً وتعفن جسده وتبدد ، ولم يبق منه إلا شظايا مبعثرة من عظام نخرة أعيد جمعها تحت سمع الرجل وبصره ثم جرت

---

(١) سورة البقرة - آية ٢٥٩

خلالها العروق وربطت بينها الأعصاب ثم انتصب الحمار بعد أن اكتسى لحماً ومد فمه إلى أديم الأرض يجمع حشائشها بشفاهه الغليظة .

إن قصة ذلك الرجل المجهول تمثل في حقيقة الأمر موقفاً إنسانياً عاماً ، يرتد فيه البصر حسيراً إذ يبلغ أطراف عالم الغيب، وفي مثل ذلك الموقف من الطبيعي أن يثور الشك العاصف أو التساؤل الحائر في صورة خواطر تبدأ من قاع النفس كفقاعات الهواء تشق بطن الماء إلى سطحه ، ينفجر أكثرها ويتبدد ، بينما تبقى أعداد منها - لفترة - متماسكة بطريقة لافتة للنظر .

ولأن الآية الأولى تبدأ بقوله تعالى «ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه . .» والثانية تبدأ بقوله سبحانه «أو كالذى مر على قرية . .» فقد أجمع المفسرون على الربط بينهما ، وهو ربط يقوم على أساس لغوى ، فالقرطبى يقول فى تفسيره «أو كالذى مر على قرية . .» أو للعطف حملاً على المعنى ، والتقدير عند الكسائى والفراء هل رأيت كالذى حاج إبراهيم فى ربه أو كالذى مر على قرية . قال المبرد : المعنى : ألم تر الذى حاج إبراهيم فى ربه ، ألم تر من هو ؟ كالذى مر على قرية [١]

ودونما اعتراض على هذه الرابطة الشكلية التى أجمع عليها

---

(١) تفسير القرطبى : الجزء الثالث صفحة ٢٨٨

المفسرون ، فإن الإهتمام بها قد لفت الأنظار عن رابطة أخرى موضوعية بين الآيات الثلاث بصفة عامة وبين الآيتين الثانية والثالثة بصفة خاصة .

فالآية الأولى تعرض قصة الملك الكافر الذى اغتر بسعة ملكه وقوة سلطانه فطفق يجادل بغير علم ، والذى تصدى له كان يستمد قوة حجته من قوة إيمانه ، ويعتمد فى منطقه الحاسم على اقتناعه الشخصى الراسخ ، لكن ذلك لم يمنعه أن يقف بعد ذلك موقفا آخر ، وكان من الممكن أن يتتابع التسجيل فترد الآية الثالثة بعد الأولى مباشرة ، وبذلك تتم المقابلة بين موقفين : فى الأول عقيدة راسخة « ربى الذى يحيى ويميت » وفى الثانى تساؤل قلق « رب أرنى كيف تحيى الموتى » لكن الآية الثانية جاءت لتمهد للموقف الذى سيقفه إبراهيم عليه السلام ولتبين أن شأنه فى حيرته هو شأن البشر أجمعين ، فطالما أن سبيلهم لاكتساب العلم ولتحصيل المعرفة هو حواسهم ، فسيبقى الإيمان بما لا تمسه كقصور من الرمال يمكن أن تنهار بلا سبب أو لأهون سبب ، وفى هذا الصدد لا امتيار للأنبياء على غيرهم ، فتساؤل إبراهيم عليه السلام لم يكن مجرد مشكلة ذاتية خاصة بل كان جزءا من قضية إنسانية عامة سبق لرجل مجهول أن طرحها فقوبلت بعناية بالغة وباهتمام فى الرد شديد .

فالرؤية التى التمسها إبراهيم كانت «معاينة» لازمة لاستكمال

يقينه بوجود عالم الغيب . وعلم اليقين ، أو عين اليقين الذى استهدفه إبراهيم هو ، كما يقول الإمام محمد عبده : الاعتقاد الذى يطابق الواقع عن عيان أو دليل صحيح ، مقدماته بديهية أو منتهية إلى البديهيات بحيث يستحيل تغيره ، والنفس إذا ملكت هذا النوع من العلم ملك هو إرادتها وعاد المصرف لها فى شئونها .

وعلى ذلك فلم يكن هناك بد من :

السؤال الذى طرحه : . . «رب أرنى كيف تحيى الموتى»

والإجابة التى حظى بها : **«فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعيا» . .** فهذا السؤال كان جهداً مطلوباً ، بغيره ما كان للإطمئنان أن يغمر قلب إبراهيم ،وتلك الإجابة كانت لازمة لما يليق بمرتبة الخلة وشرف النبوة وبما يتناسب مع التكليف بإبلاغ رسالة السماء .

لكن ، هل انفرد إبراهيم عليه السلام بهذه المحاولة للنفاذ من بين أستار الغيب ، أم أن هناك رسلاً ساروا على نهجه ؟

ذلك ما سوف نقف عليه من خلال المتابعة القرآنية لقصة موسى عليه السلام .

موسى عليه السلام

بالإضافة إلى ما ورد فى سورة البقرة عن قصة بنى إسرائيل أنفسهم ، فقد اهتم القرآن الكريم بقصة موسى عليه السلام وأوردها فى أكثر من سورة منها «الأعراف ، طه ، الشعراء» وقد ركزت كل سورة على زاوية معينة أو جانب محدد من القصة ، لكن سورة القصص أحاطت فى تواصل وترابط بمعظم مراحلها مع بسط فى ناحية وقبض فى أخرى ، وهى تبدأ بإبراز الظروف التعسة التى أحاطت بمولد موسى وهددت بالقضاء عليه وكيف أن غلبة الخوف على أمه قد دفعها إلى أن تطلقه مع التيار فى سلة تتقاذفها أمواج النهرحيث التقطه آل فرعون **«وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى ..»** (١)

ورغم علم آل فرعون أنه أحد مواليد الإسرائيليين الذين صدر الأمر بقتلهم إلا أن قلب امرأة فرعون رق للوليد الصغير فقررت حمايته والإبقاء عليه **«وقالت امرأة فرعون قرة عين لى ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا»** (٢)

وتنبسط الآيات بعد ذلك لبيان كيفية تحقيق وعد الله برد موسى

---

(١) سورة القصص - آية ٧ (٢) سورة القصص - آية ٩

إلى صدر أمه وذراعيها **«وحرمنا عليه المراضع من قبل فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون . فرددناه إلى أمه كى تقر عينها ولا تحزن»** (١) ثم تنتقل الأحداث فجأة إلى موسى وقد بلغ أشده وقتله لأحد المصريين ثم هروبه خائفاً عبر سيناء إلى مدين بصحراء شمال الجزيرة العربية ومساعدته لامرأتين فى سقيا إبلهما ثم رجوع واحدة منهما تدعوه لزيارة أبيها الذى عرض عليه الزواج من إحداهما لقاء أن يعمل عنده ثمانية أعوام له أن يزيدها إلى عشرة .

ولبث موسى عشر سنين وفَّى فيها التزامه ، لكن حنينه إلى مصر - فيما يبدو - لم يفتر خلال تلك السنين ، فما أن أتم المدة حتى سار بأهله يقصد مصر . وفى صحراء سيناء داهمته ليلة عاصفة الريح كثيفة الظلام ، وضل طريقه وليس من علامة يهتدى بها لا فى الأرض ولا فى السماء ، ووسط هذا اليأس المطبق والضياع المحتوم يلمح ناراً لا تعنى له الدفء فى هذا البرد اللافح بل تعنى كذلك الأمل فى استمرار الحياة ، فقال لأهله **« امكثوا إنى آنست ناراً لعلى آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون»** (٢)

لكنه إذ اقترب من النار نودى . . **« أن يا موسى إنى أنا الله**

---

(١) سورة القصص - آية ١٢ ، ١٣

(٢) سورة القصص - آية ٢٩

رب العالمين » [1] وهنالك صدر له التكليف الإلهى بمواجهة فرعون مصر ، وبدأت بالتالى مهمته كرسول من عند الله .

وإذا انتقلنا إلى سورة الشعراء التى تبدأ القصة فيها من لحظة تكليف موسى بالرسالة ، فسنطالع مشاهد نابضة بالحياة عامرة بالحركة لكل ما دار بين موسى وفرعون ابتداء بعرض موسى لدعوته وآياته ثم لقائه بالسحرة وانتهاء بإغراق فرعون وجنوده [2]

أما سورة طه التى تهتم بالعديد من تفصيلات القصة فإنها تركز على المقابلة بين رسوخ الإيمان فى قلوب السحرة من بعد ما آمنوا وبين ضعف الإيمان فى قلوب بنى إسرائيل رغم ما رأوا من الآيات البينات [3] وأخيراً فإن سورة الأعراف التى تطوى أحداث القصة من لحظة لقاء موسى بفرعون ثم بالسحرة فإن المحور الرئيسى لها هو بيان أن معاناة موسى لم تقتصر على استكبار فرعون وعصابته، بل إن ما ناله من فساد بنى إسرائيل وميلهم الغريزى للانحراف كان أشد وأفدح [4]

ومن بين آيات تلك السور الكريمة نستطيع أن نحصل على صورة واضحة الملامح والصفات لشخصية موسى عليه السلام ، وهى شخصية تغلب عليها قوة الشكيمة وسرعة الغضب وحدة

---

(١) سورة القصص – آية ٣٠
(٢) سورة الشعراء – الآيات من ١٠–٦٦
(٣) سورة طه – الآيات من ٩–٩٨
(٤) سورة الأعراف – الآيات من ١٠٣–١٥٦

الانفعال [1] استنجد به إسرائيلى فى معركة بينه وبين أحد المصريين فاندفع موسى دون أن يتبين من الظالم ومن المظلوم فوكز المصرى لمجرد أنه ليس من شيعته فقتله . ورغم ندمه وتوبته إلا أنه فى اليوم التالى مباشرة كاد أن يودى بحياة شخص آخر لولا أن سارع من كان على وشك أن يصبح الضحية الثانية فذكر موسى بجريمة الأمس ، ولفت نظره إلى أنه لو قتله اليوم لأصبح من معتادى الإجرام الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون ، وفى ذلك نقرأ قوله تعالى : **«ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه قال هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين . قال رب إنى ظلمت نفسى فاغفر لى فغفر له إنه هو الغفور الرحيم . قال رب بما أنعمت على فلن أكون ظهيراً للمجرمين . فأصبح فى المدينة خائفاً يترقب فإذا الذى استنصره بالأمس يستصرخه قال له موسى إنك لغوى مبين . فلما أن أراد أن يبطش بالذى هو عدو لهما قال**

---

(١) تغاضى المفسرون القدامى عما سجله القرآن الكريم من مواقف لموسى عليه السلام تكشف عن سرعة اندفاعه وحدة انفعاله ، لكن الأستاذ سيد قطب رحمه الله أشار إلى ذلك صراحة ، فقرر فى تفسير سورة القصص ما نصه : هذه الارتعاشة العنيفة ، وقبلها الاندفاع العنيف تصور لنا شخصية موسى عليه السلام شخصية انفعالية حارة الوجدان قوية الاندفاع (فى ظلال القرآن) المجلد الخامس - صفحة ٢٦٨٢

يا موسى أتريد أن تقتلنى كمـا قتلت نفساً بالأمس إن تريد إلا أن تكون جباراً فى الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين» (١)

وإلى قوة موسى وفتوته أشارت إحدى امرأتى مدين وهى تقول لأبيها **«يا أبت استأجره إن خيـر من استأجرت القوى الأمين»** (٢) وفى تفسير هذه الآية يأتى القرطبى برواية عن عمر بن الخطاب أنه قال : لما استقى الرعاة غطوا على البئر صخرة لا يقلعها إلا عشرة رجال فجـاء موسى فاقتلعهـا فاستقى ذنوباً واحداً لم تحـتج غيره فسقى لهما (٣)

وفى وصف رسول الله ﷺ لموسى ما يفيد أنه كان فارع الجسد قوى البنيان ، ففيما يرويه ابن اسحاق فى حديث المعراج يقول : إن رسول الله ﷺ قال : ثم أصعدنى - أى جبريل - إلى السماء السابعـة فاذا فيـها رجل آدم طويل أقنى ، كـأنه من رجال شنوءة فقلت : ما هذا يا جبريل ؟ قال هذا أخوك موسى بن عمران .

هكذا كـان موسى قـبل بعثـته ، وهكذا اسـتمـر بعدها كـما ستكشفـ عنه الأحـداث ، أما عند تكليفه بالرسـالة فتلقى الآيات أضـواء كاشـفة على جـوانب من شـخصـيـته جـديرة بالملاحظة والتسجيل ، فعندما أحاطتـه الظلمات فى صحراء سيناء ولـم يعد يدرى أتفضى به خطواته إلى السلامة أم إلى الهلاك رأى ناراً فاتجه

(١) سورة القصص - الآيات من ١٥ - ١٩ (٢) سورة القصص - آية ٢٦
(٣) تفسير القرطبى . الجزء الثالث عشر - صفحة ٢٦٩

إليها وهو يقول لأهله « **امكثوا إنى آنست ناراً لعلى آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون** » (١) فهدفه كان واضحاً ومحدداً : خبر يعرف به مكانه من الأرض ويحدد بالتالى اتجاهه أو جذوة من النار يستدفىء بها هو وأهله ، لكنه إذ اقترب من النار نودى « **أن يا موسى إنى أنا الله رب العالمين . وأن ألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولّى مدبراً ولم يعقب يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين . اسلك يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء واضمم إليك جناحك من الرهب فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملئه إنهم كانوا قوماً فاسقين** » (٢)

ذلك هو الاتصال الأول لموسى بالسماء وفيه كان التكليف المباشر له بالرسالة ، لكن المؤكد أن ذلك قد تم بطريقة تختلف عن مثيلاتها بالنسبة لغيره من الرسل ، فنحن على سبيل المثال نعرف أن اتصال الوحى بمحمد ﷺ تم بواسطة تمثلت فى جبريل ، وبدأ بالأمر « **اقرأ باسم ربك الذى خلق** » بينما لانكاد نلمح متى وكيف بدأ اتصال الوحى بإبراهيم عليه السلام ، والغالب أنه لم يتم بواسطة ، بل - كما يقول الأستاذ الإمام محمد عبده فى تعريفه للوحى - بعرفان وجده إبراهيم فى نفسه مع اليقين بأنه من عند الله ، وذلك بعدما غربت الشمس فقال إبراهيم « **إنى برىء مما تشركون . إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض**

---

(١) سورة القصص - آية ٢٩

(٢) سورة القصص - الآيات ٣٠ - ٣٢

حنيفاً وما أنا من المشركين » [1] فللتكليف بالرسالة وسائل مختلفة بما يتلاءم مع قدرات كل رسول واستعداده ، وبالنسبة لإبراهيم الذى كان مشغول الفكر بالخالق ، ملهوف القلب للتعرف عليه فإن العرفان أو الإلهام الذى تلقاه كان كافياً ، أما بالنسبة لموسى عليه السلام فقد كان فى طريقه إلى النار بدوافع شخصية بحتة هى حرصه على سلامته وسلامة أهله ، ومن ثم فالاستعداد النفسى للتلقى لم يكن متوافراً ، ولهذا السبب من جهة ولطبيعته الانفعالية من جهة أخرى فلم يكن من المجدى أن يتم الوحى بعرفان يجده فى نفسه ، كما لم يكن من المأمون أن يتم بواسطة ملك من عند الله بل كان من الحتمى أن يبدأ بالنداء المباشر «أن يا موسى » حتى يعلم أن الخطاب موجه إليه ممن هو بأمره عليم **«إنى أنا الله رب العالمين»** حتى يعرف صاحب الخطاب ، ثم نلحظ فى هذا اللقاء الأول لموسى بربه ملاحقة سريعة كأنما القصد منها منعه من التفكير إلا بعد أن تجبهه الآيات وتملأ سمعه وبصره ، فبعد النداء **«أن ياموسى إنى أنا الله رب العالمين»** صدر الأمر **« أن ألق عصاك»** لكنه إذ رآها حية تسعى أطلق ساقيه للريح فى هروب بلا رجعة ، لكن الأمر صدر له مرة أخرى وبالاسم **«يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين »** وإذا كانت آية العصا قد ألقت الروع فى قلبه فهناك آية أخرى تعيد له شعاع

---

(1) سورة الأنعام - آية ٧٨ ، ٧٩.

نفسه ، فصدر له الأمر من جديد **« اسلك يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء»** .

هذه الاحتياطات كلها فى لحظة التكليف أو التشريف بالرسالة إنما تمثل أقصى درجات اللطف والرفق بموسى والتحسب لطبيعته وقدراته ، ورغم ذلك فعندما استمع إلى قول الله عز وجل **«فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملئه»** فإن رد فعله الأول تمثل فى محاولة للتنصل من المهمة ، قال **«رب إنى قتلت منهم نفساً فأخاف أن يقتلون»** (١)

ولقد مر المفسرون القدامى والمحدثون بهذه الآية مرور الكرام فلم يستوقفهم أن موسى كان فى طريقه بالفعل إلى مصر فلما صدر له الأمر بالتوجه إلى فرعون مصر حاول الاعتذار بأن هذه المهمة قد تكلفه حياته ، لكن ابن كثير خرج على هذا الإجماع وارتأى أن فى الآية ما يشبه التردد فى حمل الرسالة فتصدى لتبريره فقرر أن موسى قال ما قال لأنه «كان يزمع زيارة مصر فى خفية من فرعون وقومه» ونفس المعنى استشعره الأستاذ سيد قطب وجاهد أيضا لنفيه ، فأوضح أن موسى قال **« رب إنى قتلت منهم نفساً فأخاف أن يقتلون »** لا ليعتذر ولا ليتقاعس ، ولا لينكص ، لكن ليحتاط للدعوة ، ويطمئن إلى

---

(١) سورة القصص - آية ٣٣

مضيها فى طريقها لو لقى ما يخاف ، وهو الحرص اللائق بموسى القوى الأمين (١)

وبالنسبة للتبرير الذى قدمه ابن كثير فمردود عليه بأن موسى قضى فى قصر الفرعون كل طفولته وصدر شبابه ، وقد عايره الفرعون بذلك عندما خاطبه بلهجة المن والاستكبار « **ألم نربك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك ستين** » (٢) والمؤكد أن ذلك قد أتاح له أن يصبح من الشخصيات العامة سواء بين المصريين أو الإسرائيليين ، وبالتالى فلم يكن من المتصور أن يغيب وسط الزحام وتتم الزيارة فى خفية من فرعون وملئه .

أما ما ذكره الأستاذ سيد قطب من أن هدف موسى كان الاحتياط للدعوة والاطمئنان إلى مضيها فى طريقها . . فإن الاحتياط لا يتناسب مع شخصية وصفها الأستاذ سيد قطب - وبحق - بأنها حارة الوجدان قوية الاندفاع ، وأما الاطمئنان إلى مضى الرسالة فى طريقها إذا ما أصاب الرسول ما يكره ، فذلك ما لا شأن للرسول به ، وفى هذا المعنى يقول عيسى عليه السلام «**وكنت عليهم شهيداً مادمت فيهم فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم**» (٣)

---

(١) فى ظلال القرآن . المجلد الخامس - صفحة ٢٦٩٣

(٢) سورة الشعراء - أية ١٨

(٣) سورة المائدة - أية ١١٧

إذن فموسى كان فى طريقه إلى مصر ، فلما صدر له التكليف بمقابلة فرعون مصر حاول الخلاص من المهمة متعللاً بجريمة قتل انقضى عليها عشر سنوات ، لكنه سرعان ما تبين ضعف حجته وأن عليه أن يصدع بالأمر فالتمس إشراك أخيه هارون معه .

وهذا الذى ندعيه لا يقدح فى موسى عليه السلام ولا ينال من قدره ، فرسل الله ليسوا على شاكلة واحدة وخاتم النبوة لا يخلقهم خلقاً جديداً ، واستيعابهم لما يلقى إليهم وإبلاغهم له إنما يتم من خلال القدرات النفسية والخلقية لكل رسول .

وإذا كنا قد أوضحنا من قبل كيف أن طبيعة موسى عليه السلام قد فرضت عند بداية التكليف بالرسالة تدابير واحتياطات غير عادية ، فإننا نضيف هنا أن هذه الطبيعة قد فرضت أمراً آخر غاية فى الخطورة والأهمية هو استبعاد الملائكة كوسطاء ، وإجراء الاتصال مباشرة بين ذات الله سبحانه وتعالى وبين موسى ، وقد أكد القرآن الكريم هذه الحقيقة فى قوله تعالى «**وكلم الله موسى تكليمًا**» (١) وأيضا «**يا موسى إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى**» (٢) فهذا الاتصال المباشر كان الوسيلة الملائمة لموسى والمجدية مع من له مثل خلقه وطباعه ، وتلك مشيئة الله وحكمته ، المواءمة بين الرسول والرسالة والمرسل إليهم .

---

(١) سورة النساء – آية ١٦٤ (٢) سورة الأعراف – آية ١٤٤

ولنواصل رحلتنا مع موسى بعد أن كلمه الله وكلفه وأصبح رسولاً نبيا ، ولقد سبق أن ألمحنا إلى أنه استمر بعد الرسالة على ما كان عليه قبلها ، ودليلنا على ذلك ما سجله القرآن الكريم من أنه عليه السلام كان فى لقاء ربه واستمع إلى قوله تعالى « **يا موسى إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين . وكتبنا له فى الألواح من كل شىء موعظة وتفصيلاً لكل شىء فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها** » (١)

فى هذا الموقف المفعم بالإشراقات والعطايا الإلهية يعلم موسى أن قومه قد صنعوا من حليهم عجلاً من الذهب اتخذوه إلهاً فأسرع إليهم وقد تملكه الغضب وأفقده الانفعال السيطرة على نفسه فعنفهم واشتد عليهم ، وأطاح فى ثورته بالألواح التى فيها شريعة الله وحكمه ، وفيها . . موعظة وتفصيلاً لكل شىء . . ثم انقض على أخيه يجره من رأسه ولحيته ، وإلى السامرى الذى أغرى الإسرائيليين بهذه الفتنة التفت موسى فأصدر أمراً بعزله وإبعاده ، ثم استدار إلى العجل الذى عبدوه فأشعل فيه ناراً ، ولم يهدأ إلا بعد أن نثر رماده وبدده فى غياهب البحر . وفى هذا العنف المتصل نقرأ قوله تعالى : « **ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً قال بئسما خلفتمونى من بعدى أعجلتم أمر ربكم**

---

(١) سورة الأعراف - آية ١٤٤ ، ١٤٥

وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه . . » [1] ثم استطرد **« . . يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا . ألا تتبعنِ أفعصيت أمرى . قال يبنؤم لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى إنى خشيت أن تقول فرقت بين بنى إسرائيل ولم ترقب قولى . قال فما خطبك يا سامرى . قال بصرت بما لم يبصروا به فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها وكذلك سولت لى نفسى . قال فاذهب فإن لك فى الحياة أن تقول لا مساس وإن لك موعداً لن تخلفه وانظر إلى إلهك الذى ظلت عليه عاكفاً لنحرقنه ثم لننسفنه فى اليم نسفاً»** [2]

فالصفات الأساسية لشخصية موسى عليه السلام قبل الرسالة صاحبته بعدها ، وهى التى تحكمت فى تصرفاته وحددت له ردود أفعاله . .

ولعله من المناسب ، وقد أحطنا بكثير من الملامح الشخصية لموسى عليه السلام أن نقارن بينه وبين إبراهيم عليه السلام ، فتلك المقارنة سوف تتيح لنا معرفة أعم وأشمل ، فضلا عن أنها ترتبط بما نحن بصدده ارتباطاً وثيقا .

إبراهيم كان منظم التفكير ، قوى الحجة متوقد الذكاء ، عندما جابه قومه لم تكن بين يديه معجزة خارقة ، بل جادلهم بمنطق

---

(١) سورة الأعراف – آية ١٥٠ (٢) سورة طه – الآيات من ٩٢ – ٩٧

حصيف ولوى أعناقهم بحجة قاطعة . أما موسى فسلاحه كان شدة فى الأسر وقوة فى الجسم لكنها شدة بلا منطق وقوة بلا حجة ، لذا فقد احتاج الأمر إلى تعزيزه بتسع آيات بالإضافة إلى أخيه يشد أزره .

إبراهيم عليه السلام أهَّل نفسه لحمل الرسالة ، واعتمد على وسائله الذاتية للانخراط فى سلك الموحدين فنظر وفكر ، وأصاب وأخطأ ، حتى ليمكن القول إن الوحى عندما خرج له من السماء وجده يقف منتظراً بالباب . أما موسى عليه السلام فما فكر أن يكون من المنذرين ، ولاخطر على باله أن يكون رسولاً نبيا ، وعندما كُلف بحمل الرسالة كان الأمر بالنسبة له مفاجأة غير متوقعة وغير مرغوبة ، وعندما أذعن تعددت مطالبه : **احلل عقدة من لسانى ، واجعل لى وزيراً من أهلى . هارون أخى . اشدد به أزرى . وأشركه فى أمرى .** [1]

هكذا فنحن حيال رسولين وإن اتحدت صفتهما وهدفهما إلا أن الاختلاف بينهما كان شديداً ، وهو اختلاف مرده تباين شخصية كل منهما عن شخصية الآخر ، هذا التباين كان قائماً قبل بعثتهما وظل قائماً بعدها ، لذلك اختلفت أقوال كل منهما عن الآخر وجاءت أفعالهما على طرفى نقيض فيما عدا موقفاً واحداً قارب التشابه فيه بينهما شكلاً وموضوعاً درجة التطابق ، وذلك حيث

(١) سورة طه - الآيات ٢٧ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢

قــال إبراهيم :

«رب أرنى كيف تحيى الموتى» .

وقال موسى :

« رب أرنى أنظر إليك»

أما قول إبراهيم فقد تعرضنا له من قبل .

وأما قــول موسى فقــد جاء فى قــوله تعالى **«ولما جاء موسى لميقــاتنا وكلمــه ربه قال رب أرنى أنظر إليك قــال لن ترانى ولكن انظر إلى الجــبل فإن اســتقــر مكانه فــسوف ترانى فلمــا تجلى ربه للجبل جعله دكاً وخر موسى صعــقا فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين»** (١)

فمــا هى مبررات طلب مــوسى عليه السلام ؟ ومــا الذى كان يسعى إليه ؟

وهل هذا التشــابه فى صيــاغة السؤال ، وفــى أسلوب طرحه يعكس تشابهاً فى الموضوع والهدف ؟

المؤكد أن لكل مــن الطلبين دوافعه ومــبرراته ، لكن المفــسرين جميعا كما تابعوا الطبرى فى الاهتمام بدراسة طلب إبراهــيم عليه السلام رؤية إحــياء الموتى فــإنهم تابعوه كــذلك فى الإعراض عن تقديم دراسة موضوعية لطلب موسى رؤية ربه ، وهو أمــر غريب

---

(١) سورة الأعراف - آية ١٤٣

يزداد وجه الغرابة فيه عندما يقارن إعراضهم هنا بإصرارهم هناك على التفتيش فى صدر إبراهيم وحماسهم للكشف عن نواياه .

ولا يمكن الاعتذار بأن سؤال رب العزة (أو لم تؤمن) وإجابة إبراهيم «بلى ولكن ليطمئن قلبى» قد وضعا إبراهيم فى دائرة الشك وأثارا بالتالي حمية المفسرين ، فذلك ليس صحيحا من وجهين :

الأول: إن دوافع إبراهيم عليه السلام لم تنشأ عند قوله «ولكن ليطمئن قلبى» بل كانت قائمة قبل أن يسأل ربه رؤية إحياء الموتى ، وهى التى حدت به إلى طرح سؤاله ، وهى التى دارت عنها وحولها أبحاث المفسرين ، كذلك فإن موسى عليه السلام قبل أن يقول «رب أرنى أنظر إليك» كانت له دوافعه ، وهى التى أطلقت هذا السؤال من خبايا نفسه ، لكن المفسرين لم ينتبهوا لها أو آثروا عدم الاقتراب منها .

الثانى : إن الحوار الذى دار بين رب العزة وبين إبراهيم عليه السلام من السؤال (أو لم تؤمن) والإجابة «بلى ولكن ليطمئن قلبى» لم يكن متصوراً مثله بعد طلب موسى عليه السلام ، فالأول سأل عن أمر هين يسير ، أما الثانى فقد سأل عن أمر جلل عظيم ، وفضلاً عن ذلك فإن الأول لديه القدرة على صياغة الرد الدقيق المتوازن أما الثانى فلم يكن يملك هذه القدرة .

لقد أجمع المفسرون على أن رؤية إحياء الموتى التى طلبها إبراهيم عليه السلام لم تكن غاية فى ذاتها ، بل كانت وسيلة لتحقيق اطمئنان القلب ، لكن ذلك لم يكن حافزاً لأى منهم لمناقشة احتمال أن يكون طلب موسى كذلك ، لأنهم اقتدوا بالطبرى والتزموا بوجهة نظره فى الآية الكريمة وأجمعوا بشأنها على أمور منها :

- أن سماع موسى كلام ربه قد أثار شوقه إلى رؤياه .

- الاهتمام بموضوع «الرؤية» ذاته كأنما سجل القرآن الكريم قول موسى «رب أرنى أنظر اليك» لإثارة البحوث حول إمكانية رؤية الله سبحانه وتعالى فى الدنيا أو استحالة ذلك .

- بالنسبة لقول موسى بعدما أفاق من الصعق «سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين» اتفقت الآراء على أن :

«تبت إليك» من مسألتى إياك ما سألتك من الرؤية .

«وأنا أول المؤمنين» بك من قومى أن لا يراك فى الدنيا أحد إلا هلك (١) أو «أول المؤمنين» من قومى ، وقيل : من بنى إسرائيل فى هذا العصر (٢) .

وهذا الذى ذهب إليه المفسرون محل نظر .

---

(١) تفسير الطبرى . الجزء التاسع . من صفحة ٤٩ – ٥٦

(٢) تفسير القرطبى . الجزء السابع – صفحة ٢٧٩

فقولهم إن «طلب موسى كان شوقاً إلى رؤية ربه بعد ما سمع كـلامه» مـبنى على أن مـوسى لم يسـمع كلام ربه قـبل ذلك ، فالطبرى يروى عن موسى بن هارون قـول السدى إن موسى عليه السلام لما كلمـه ربه أحب أن ينظر إليه ، والقرطبى يقـول (كلمه ربه) أى أسـمعه كـلامه من غـير واسطة ، قـال (رب أرنى أنظر إليك) سأل النظر إليه واشتاق إلى رؤيته لما أسمعه كلامه (١) .

فى حين أن هذه لم تكن المرة الأولى التى يسـمع فيهـا موسى كلام ربه ، فابتداء الوحى إليه تم بكلام سمعه من الله مباشرة .. **يا موسى إنى أنا الله .**

أما قولهم إن توبة موسى التى أعلنهـا بعد ما أفاق من الصعق إنما كانت لسؤاله الرؤية ، فهو لا يستقيم مع قولهم إن الشوق كان دافـعه إلى مـا طلب ، فـشـدة الشوق علـى أى وجه كـانت لا تستدعى التوبة ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فقد فاتهم أن استجابة الله غير المباشرة لطلب موسى إنما تؤكد أن الرؤية لم تكن ذنباً يستتاب منه بل غاية مشروعة وجبت مراعاتها والعناية بها .

وأخيراً فإن تأويل المفسرين لـقول موسى بعد ما أفاق «وأنا أول المؤمنين» بأن المعنـى : أول المؤمنين بك من قـومى أن لا يراك فى الدنيا أحد إلا هلك .. هـذا القـول مردود بأن إعـلان « الإيمان »

---

(١) تفسير القرطبى - الجزء السابع - صفحة ٢٧٨

فى القرآن الكريم لم يأت مقيـدا على نحو ما تأولوه بل جاء عاما دون تخصيص .

وبغض النظر عما أفاض فيه المفسرون فقد اشتملت الآية التى نحن بصددها على :

طلب واضح وصريح من موسى «رب أرنى أنظر اليك»

ورد قاطع وبات باستحالة ذلك «لن ترانى» .

لكن الأمر لم يقف عند هـذا الحـد ، فقـد تفضـل رب العـزة بعرض بديل آخر تحقق به لموسى ما يريد «. . **ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى**» ثم تجلى الله للجبل فـخر موسى صعقا .

ويؤول المفسرون الأمر على أن تجلـى الله للجبل كـان لمجرد إقناع موسى بعـجزه عن احتمـال الرؤية وكأن «لن ترانى» من الله غير كـافية ، فالقـرطبى فى تفسير قـوله تعالى «**ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى**» يقول : ضرب لـه مثالاً مما هو أقوى من بنيته وأثبت أى فـإن ثبت الجبل وسكن فسوف ترانى وإن لم يسكن فإنك لا تطيق رؤيتى (١)

والأستاذ سيد قطب عن ذات الآية يقول ،«قال : لن ترانى ثم يترفـق بـه الـرب العـظيـم الجليل فيعلمه لماذا لن يـراه . . إنـه لا يطيق»

---

(١) تفسير القرطبى . الجزء السابع – صفحة ٢٧٨

ولعله من المناسب قبل أن نناقش ما سلف ، أن نقارن طلب موسى عليه السلام بطلب مماثل لبنى إسرائيل سجله القرآن الكريم فى قوله تعالى **«وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون»** (١)

فالواضح هنا أن طلب القوم لم يكن فحسب فوق طاقتهم بل ويخرج عن حدود المسموح لهم به كبشر ، لذلك فالرد عليهم تمثل فى ذلك العقاب العاجل العنيف ، فقد . . أخذتهم الصاعقة وهم ينظرون .

أما بالنسبة لموسى الذى لم يكن يطيق الرؤية كغيره ، فإن استبدالها برؤيته للجبل وقد تجلى له الله إنما يؤكد :

- إن المشكلة لو اقتصرت على عجز موسى عن احتمال الرؤية لكانت الإجابة بـ «لن ترانى» بالغة فى ذاتها دون ما حاجة لإقامة الدليل عليها . فتجلى الله للجبل لم يكن لإثبات عجز موسى ، بل كان استجابة لطلبه وتحقيقاً لمراده فى حدود ما يطيق وما يستطيع .

- إن الشوق لم يكن الدافع الوحيد لطلب موسى رؤية ربه ، لأنه لو كان كذلك لتعين إجابته أو رفضه ، أما تقديم البديل فلم يكن له محل .

---

(١) سورة البقرة - آية ٥٥

- إن الرؤية وإن كانت غاية فى ذاتها وشرفاً للمؤمن ما بعده شرف ، إلا أنها بالنسبة لموسى كانت فوق ذلك وسيلة إلى غاية أخرى لم يفصح عنها موسى ، وقد ثبت من سياق الأحداث أن هذه الغاية كانت ضرورية ولازمة ، لأنها لو لم تكن كذلك لانتهى الموقف عند قوله تعالى «لن ترانى» ، لكن إنزال الستار عند هذا الحد لم يكن ليحسم المشكلة التى ثارت فى صدر موسى، ولم يكن ليحقق له الغاية التى استهدفها من سؤاله .

وعلى ذلك فهناك تشابه بين طلب إبراهيم رؤية إحياء الموتى وطلب موسى رؤية ربه ، فالطلب فى الحالتين كان وسيلة إلى غاية محددة ، هذه الغاية - فى موقف إبراهيم - كشف عنها الحوار الذى دار بينه وبين ربه ، أما فى موقف موسى فإن الحوار وإن لم يكشف عنها إلا أن الأحداث قد تواصلت إلى أن حصل موسى على الدليل الحسى الذى حصل عليه إبراهيم من قبل .

ولقد سبق أن أشرنا إلى اختلاف كل من الرسولين الكريمين عن الآخر ، وهو اختلاف شمل مساحات شاسعة فى شخصية كل منهما ، ويبقى أن نشير إلى ما بينهما من اتفاق يأتى فى مقدمته اشتراكهما فى صفات البشر الأساسية بما فيها من نقاط الضعف والقوة ، فهم كغيرهم يخرجون من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئا ، ولا يملكون وسيلة للعلم سوى حواسهم التى لا

تتعامل إلا مع الماديات ، وبالتالى يشكل عـالم الغيب بالنسبة لهم علامة استفهام كبيرة لا ضرر فى أن تبقى فى نفوس عامة المؤمنين دون إجابة قاطعة ، أما رسل الله فلابد من حـسمها بدليل يختاره كل منهم .

هذا الاختـيار حدده إبراهيم عليه السـلام فى قوله «رب أرنى كيف تحيى الموتى» .

وحدده موسى عليـه السلام فى قوله : «رب أرنى أنظر اليك» لكن الهدف من الاخـتيارين واحـد ، هو اختراق حـجب الغيب التماساً لدليل ينقطع معه قيام الشك أو احتمال قيامه .

من هنا كـان اهتمـام المولى اللطيف بعـبـاده ، ليس بما أعلنه موسى - وهو مستحيل فى ذاته - بل بما أسره وهو «المعاينة» التى استـهدفـها من الرؤية ، فتلك المعـاينة هى الوسيلة الـتى أتيحت لرسل الله لرفع إيمانهم بالغيب إلى درجة عين اليـقين ، وسبيلهم إليها هو التماسها مباشرة من رب العزة .

بهذا يستـقيم قول موسى بعـد ما أفاق من الصعق «سـبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين» فإعلان التـوبة هنا له ما يبرره ، لأن موسى عليـه السلام بعد ما طلب وتحـقق له ما أراد اعتقـد أنه ما كان له أن يستسلم لخواطره البشرية ويسعى إلى ما سعى إليه . أما قوله «وأنا أول المؤمنين» أى أول من آمن عن رؤية ومعاينة .

وهنا يثور تساؤل : إذا كان طلب كل من إبراهيم وموسى عليهما السلام قد نبع من نقاط الاتفاق بينهما وليس من مناطق الاختلاف ، فلماذا التمس أحدهما رؤية إحياء الموتى والتمس الآخر رؤية الله ؟

وفى الرد على ذلك فإن الغاية من الطلبين واحدة والهدف منهما واحد ، لكن اختلاف المقومات الأساسية فى شخصية كل من إبراهيم وموسى أدى إلى اختلاف ما اختاره كل منهما ، فإبراهيم عليه السلام ليس فقط صاحب حجة قوية ومنطق أخاذ ، بل هو بالإضافة إلى ذلك كيس فطن ، لبيب أريب ، عندما أراد أن يعاين عالم الغيب اختار الخطوة الأولى فيه ، واختياره ينطوى - دون شك - على ذكاء لماح وأدب ملحوظ .

أما موسى عليه السلام فقد تحدد اختياره فى ظل طبيعته وظروفه

فبالنسبة لطبيعته : فإنه يفتقد لباقة إبراهيم عليه السلام وكياسته ومن ثم فالمتوقع إذا ما طاف به تساؤل عن الغيب أن يندفع إلى آخر المدى ، فلا يكتفى كإبراهيم بطلب رؤية إحياء الموتى أو الاطلاع على الجنة والنار ، بل يطلب رؤية قمة ذلك العالم الغيبى وهى ذات الله سبحانه وتعالى .

وأما بالنسبة لظروفه : فإن سماعه كلام الله أتاح له أن يتخطى من عالم الغيب مراحله الأولى ، وبالتالى فقد انحصر الغيب بالنسبة له فيما حجب عنه وهو رؤية الله ، وما كان لموسى عليه السلام مع ما أوثر عنه من شدة الاندفاع أن يكتفى بالدليل الحسى الذى تحقق له - سماع كلام الله - ومن ثم كان سعيه أن يجمع الرؤية إلى السماع كيما يصل إلى حالة «عين اليقين» التى يمتنع بعدها أن يجد الشك إلى قلبه سبيلا ، فهو قد اختار وطلب ، وتحقق له ما أراد وهو . . يسمع ويرى ، فاليقين هنا لا يستند إلى أدلة متاحة ربما أفقدها التكرار بريقها وحجيتها ، بل يستند إلى دليل بعينه حدده كل رسول حسب رؤيته وقدراته . وذلك ما بينته قصة كل من إبراهيم وموسى عليهما السلام ، ويبقى أن نتابع قصة عيسى من خلال السرد القرآنى لنرى ما تسفر عنه الأحداث .

عيسى عليه السلام

وردت القصة مختصرة فى عدد قليل من السور ، ولم تستغرق فى أى منها سوى آيات معدودات ، ولا غرابة فى ذلك فعيسى عليه السلام مرسل إلى أهل كتاب هم اليهود **«ورسولاً إلى بنى إسرائيل . .»** [1] وهو لم يأت برسالة جديدة بل أتى ليجدد رسالة سابقة ويعيد أصحابها إلى العقيدة الصحيحة ، وهو لا ينفى ما قبله من كتاب بل يؤمن بالتوراة كتاب بنى إسرائيل ، وجاء . . ليرفع عنهم جانباً من العقوبات ، وليحل لهم بعض الذى سبق تحريمه عليهم **«ومصدقاً لما بين يدى من التوراة ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم . .»** [2]

وينحصر ما تم التركيز عليه فى القصة فى ولادة عيسى وحديثه وهو فى المهد ومعجزاته وأنه عبد لله ثم رفعه للسماء .

فبالنسبة لمولده نقرأ فى سورة آل عمران :

« إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم وجيهاً فى الدنيا والآخرة ومن المقربين . ويكلم الناس فى المهد وكهلاً ومن الصالحين . قالت رب أنّى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر قال كذلك الله يخلق ما

---

(١) سورة آل عمران – آية ٤٩ (٢) سورة آل عمران – آية ٥٠

يشاء . .» (١)

ونفس الموقف تسجله سورة مريم بشىء من التفصيل :

«واذكر فى الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً. فاتخذت من دونهم حجاباً فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سويا . قالت إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا . قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكيا . قالت أنَّى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغيا . قال كذلك قال ربك هو علىَّ هيِّن ولنجعله آية للناس . .» (٢)

أما عن حديثه عليه السلام وهو فى المهد فتسجله سورة مريم فى قوله تعالى :

«فأتت به قومها تحمله قالوا يا مريم لقد جئت شيئاً فريا . يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا . فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبيا . قال إنى عبدالله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا . وجعلنى مباركاً أين ما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة مادمت حيا . و براً بوالدتى ولم يجعلنى جباراً شقيا . والسلام علىَّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا» (٣)

---

(١) سورة آل عمران – الآيات ٤٥ – ٤٧ (٢) سورة مريم – الآيات ١٦ – ٢١

(٣) سورة مريم – الآيات ٢٧ – ٣٣

وفيما يختص بمعجزاته فتبسطها آيات سورة آل عمران فى قوله تعالى :

« قد جئتكم بآية من ربكم أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله وأبرىء الأكمه والأبرص وأحيى الموتى بإذن الله وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين » (١)

أما عن نفى الألوهية عنه فنقرأ فى سورة المائدة :

«لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم . .» (٢)

وأيضا **« ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام. . »** (٣)

وعن ختام حياته نقرأ قوله تعالى :

« إذ قال الله يا عيسى إنى متوفيك ورافعك إلىّ ومطهرك من الذين كفروا . . » (٤)

ذلك هو معظم ما ورد عن القصة فى القرآن الكريم ، وكما أسلفنا فإن عدد السور التى أشارت إليها قليل والآيات المخصصة لها محدودة ، وهى فى مجموعها وإن كانت لا ترسم صورة واضحة لشخصية عيسى عليه السلام ، إلا أنها تؤكد أن ولادته

---

(١) سورة آل عمران – آية ٤٩
(٢) سورة المائدة – آية ٧٢
(٣) سورة المائدة – آية ٧٥
(٤) سورة آل عمران – آية ٥٥

دون أب كانت معجزة وأن وجـوده كان آية ، وأن المعجزات التى جرت على يديه لم تكن من النـوع المقـيد - كعصـا مـوسـى - يستـعملها إذا أعوزه الدليل فـتنقلب حية تسـعى ، أو يؤمر - إن واجهته مشكلة - فيضرب بهـا فتشق له طريقاً فى البحر أو تفجر له من الصخـر ينبوعا ، بل إن معـجزاته عليه السـلام كانت أعم وأشمل ، فهو قـادر على الإتيان بها كيفمـا شاء وكلما أراد طالما أعلن أن ما يجرى على يديه إنما يتم بقدرة الله وبإذنه .

تلك هى قصة عيسى عليه السلام كما وردت فى القرآن الكريم وما أوردناه منها هو معظم ما جاء عنها ، وهو لا يحتوى على أية تفصيلات عن تصرفاته أو شخصيته ، كما لم يشتمل على موقف يمكن تأويله على أنه محـاولة للنفاذ من بين أستار الغيب التـماساً لدليل يطمئن عليه القلب .

فـهل خرج عـيسى عليـه السـلام على القاعـدة وارتفع إيمانه بالغـيب إلى عين اليـقين دون مـعـاينة ؟ أم إنه طلبـها كـإبراهيم وموسى عليهما السلام لكن القرآن الكريم لم يسجلها له ؟

المؤكد أن عيـسى عليه السلام لو طلب المعاينة لسـجلها القرآن الكريم ، لكنه لم يفـعل ، لأن الغاية من المعاينة هى حـيازة دليل حسى يكتمل به الإيمان ويطمئن عليه القلب ، فى حين أن ولادته نفسها كانت معـجزة ، ووجوده ذاته كان آية ، وبالتالى فلم يكن

له أن يتمسك لا بالقاعدة العامة التى تحتم الاعتماد على الحواس كوسيلة وحيدة لاكتساب العلم ولبلوغ اليقين ، ولا بنتائج هذه القاعدة المتمثلة فى قصر الثقة على المحسات ، ذلك أن التمسك بالقاعدة ، وبنتائجها سوف يؤدى - أول ما يؤدى - إلى التباس الأمر فى شأن عيسى، فالحواس لا تقر مولوداً بلا أب ولا تعترف بوجوده .

وعلى ذلك فلو افترضنا جدلا أن التساؤلات حول الغيب قد تدافعت فى صدر عيسى ، وانعكس ذلك فى حيرة عن الغيب وما بعد الموت ، فلم يكن له أن يعلن ما تسره نفسه ، فذلك يتعارض مع معجزة ميلاده ويتناقض مع آية وجوده .

لكن ذلك الوضع الخاص لعيسى عليه السلام لا ينفى عنه بشريته ، ولا يحميه من احتمالات أن تراوده التساؤلات كما فعلت مع كل من إبراهيم وموسى عليهما السلام ، وإذا كان الأول قد طلب للخلاص منها أن يرى إحياء الموتى ، وأن الثانى قد طلب لدفعها أن يرى الله ، فإن ظروف ميلاد عيسى عليه السلام قد سلبته ذلك الحق لأن تفسير وجوده فى ضوء المعايير المادية - التى تطيقها الحواس وتستوعبها - غير ممكن ، ومن هنا فلم يكن له أن يسعى إلى ما سعى إليه كل من إبراهيم وموسى عليهما السلام . . لكنه بشر ، وها هى فرصة التماس الدليل تعرض نفسها عليه فماذا هو فاعل ؟

توضح آيات سورة آل عمران أن عيسى عليه السلام بعد ما عرض آياته على بنى إسرائيل وبين لهم دعوته فإنهم لم يكتفوا بالإعراض عنه ، بل وبيتوا النية للمكر به والتآمر عليه ، وفى ذلك نقرأ قوله تعالى :

« فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصارى إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون» (١)

والراجح أن إيمان الحواريين لم يكن عن إعمال فكر أو تدبير رأى، بل تم بفضل من الله ونعمة وذلك حسبما يكشف عنه قوله تعالى :

«وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون» (٢)

وفى تفسير القرطبى يقول «أوحيت هنا بمعنى أمرتهم وقيل بينت لهم» (٣) وأكثر المفسرين على أن الوحى جاءهم إلهاما من الله .

فالمولى سبحانه وتعالى ألهم الحواريين وقذف فى قلوبهم الإيمان به وبعيسى فآمنوا .

والحواريون جماعة من بنى إسرائيل رأوا الخوارق والمعجزات

---

(١) سورة آل عمران – آية ٥٢ (٢) سورة المائدة – آية ١١١

(٣) تفسير القرطبى - الجزء السادس – صفحة ٣٦٣

تترى على يدى عيسى بن مريم ، كانوا معه وهو يحيل الأعمى مبصراً ويشفى المرضى وذوى العاهات ، استمعوا له وهو يكشف عما وراء الجدران من طعام معد أو مال مدخر ، شاهدوه وهو يخرج من القبور بعض ساكنيها ممن عفى عليهم الزمان أو وهو يعيد إلى الحياة من تم إعداده وتجهيزه للدفن .

رأى الحواريون ذلك جميعه أو عاصروه لكن الإيمان لم يدخل قلوبهم إلا عندما استنصرهم عيسى فأوحى الله إليهم فآمنوا ووثقوا إيمانهم بإشهاد الله عليه . فما معنى طلبهم بعد ذلك دليلاً دون ما أتيح لهم بالفعل ، وهو ما سجله القرآن الكريم فى قوله تعالى :

« إذ قال الحواريون يا عيسى بن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين» (١)

ولنطالع أقوال المفسرين فى هذه الآية :

ينقل القرطبى فى تفسيره الرأى التالى :

«وقيل المعنى : هل يقدر ربك ؟ وكان هذا السؤال فى ابتداء أمرهم قبل استحكام معرفتهم بالله عز وجل ، ولهذا قال عيسى فى الجواب عند غلطهم وتجويزهم على الله ما لا يجوز «اتقوا الله إن كنتم مؤمنين » أى لا تشكوا فى قدرة الله تعالى ، ثم يعقب القرطبى على هذا الرأى

---

(١) سورة المائدة - أية ١١٢

بقـوله : وهـذا فـيه نظـــر ، لأن الحـــواريين خلصان الأنبـيـاء ودخلاؤهم وأنصارهم كما قال «**من أنصارى إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله**».

ويضيف

«.. إنه يجوز أن يقال إن ذلك – أى طلب المائدة – ممن كان معهم» ثم يقـول «وقيـل : إن القوم لم يشكوا فى استطاعـة البارى سبحـانه لأنهـم كانوا مؤمنين عالمين ، وإنما هو كـقولك للـرجـل : هـل يستطـيع فلان أن يأتى، وقد علمت أنه يستطـيع ، فالمعنى : هل يفعل ذلك ، وهل يجيبنى إلى ذلك أم لا ؟ وقد كانوا عـالمين باستطاعة الله تعالى لذلـك ولغيره علم دلالة وخبر ونظر فأرادوا علم معاينة كذلك»

ثم يعلق القـرطبى على مـا سلف بقـوله «وهذا تأويل حـسن وأحسن منه أن ذلك كان من قول من كان مع الحواريين» (١)

أما الطبرى فإنه يركز على اخـتلاف القراء فى قراءة قوله تعالى «**هل يستطيع ربك**» ويقول :

قرأ ذلك جـماعـة من الصحابة والتـابعين «هل تستطيـع» بالتاء «ربك» بالنصب ، بمعنى : هل تستطيع أن تسأل ربك ، وهـل تستطيع أن تدعـو ربك .. وقالـوا : لم يكن الحواريون شـاكين أن الله تعالى ذكـره قادر أن ينزل عليهم ذلك ، وإنما قالوا لعيسى : هل تستطيع أنت ذلك ؟

ثم يضـيف

---

(١) تفسير القرطبى ، الجزء السادس صفحة ٣٦٤ وما بعدها

«وأولى القراءتين عندى بالصواب قراءة من قرأ ذلك «هل يستطيع» بالياء «ربك» برفع الرب ، بمعنى : هل يستجيب لك إن سألته ذلك ، ويطيعك فيه ؟ وإنما قلنا ذلك أولى القراءتين بالصواب لما بينا قبل من أن قوله «إذ قال الحواريون» من صلة إذ أوحيت ، وأن معنى الكلام : وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى «إذ قال الحواريون يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربك» فبين إذ كان ذلك كذلك ، أن الله تعالى ذكره قد كره منهم ما قالوا من ذلك واستعظمه ، وأمرهم بالتوبة ، ومراجعة الإيمان من قيلهم ذلك ، والإقرار لله بالقدرة على كل شيء وتصديق رسوله فيما أخبرهم عن ربهم من الأخبار » .

ثم يقارن الطبرى بين سؤال الحواريين وبين فقير يطلب من رسوله أن يسأل له ربه أن يغنيه ،أو إن عرضت به حاجة أن يسأل له ربه أن يقضيها . . ثم يقول : «إن ذلك سؤال ذى حاجة عرضت له إلى ربه ، فسأل نبيه مسألة ربه أن يقضيها له» وإن طلب الحواريين لم يكن كذلك لأن :

«خبر الله تعالى عن القوم ينبىء بخلاف ذلك ، وذلك أنهم قالوا لعيسى إذ قال لهم : **اتقوا الله إن كنتم مؤمنين . قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا** » فقد أنبأ هذا عن قيلهم أنهم لم يكونوا يعلمون أن عيسى قد صدقهم ، ولا اطمأنت قلوبهم إلى حقيقة نبوته ، فلا بيان أبين من هذا الكلام فى أن القوم كانوا قد خالط قلوبهم مرض ، وشك فى دينهم وتصديق رسولهم ، وأنهم سألوا ما سألوا من ذلك اختبارا» (١)

---

(١) تفسير الطبرى - الجزء السابع - صفحة ١٣٠

وقد مال الزمخشرى فى تفسيره لتجريح إيمان الحواريين كما فعل الطبرى فهو يقول :

فإن قلت كيف قالوا (هل يستطيع ربك) بعد إيمانهم وإخلاصهم (قلت) ما وصفهم الله بالإيمان والإخلاص ، وإنما حكى ادعاءهم لهما ثم أتبعه قوله : إذ قالوا ، فإذن إن دعواهم كانت باطلة وإنهم كانوا شاكين ، وقولهم : هل يستطيع ربك ، كلام لا يرد مثله عن مؤمنين معظمين لربهم، وكذلك قوله عليه السلام لهم معناه : اتقوا الله ولا تشكوا فى اقتداره واستطاعته ولا تقترحوا عليه ولا تتحكموا ما تشتهون من الآيات فتهلكوا إذا عصيتم بعدها [(١)]

ذلك هو مجمل ما ورد فى تفسير الآية ، والواضح أن استعمال الحواريين فى طلبهم لأداة الاستفهام «هل» والفعل «يستطيع» قد أثار أمام المفسرين مشكلة تعذر حلها ، ثم ما لبثت حدة هذه المشكلة أن تضاعفت نتيجة للتتابع والارتباط بين آية **(إذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى . .)** وآية **«إذ قال الحواريون ياعيسى بن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء»** .

ففى الآية الأولى أمر إلى الحواريين بالإيمان واستجابة منهم وإشهادهم الله على إيمانهم ، وفى الثانية طلب يتعارض مع الإقرار الذى أعلنوه والشهادة التى التمسوها ، وللخروج من هذا المأزق قدم المفسرون التأويلات الآتية .

---

(١) تفسير الكشاف للزمخشرى . المجلد الأول – صفحة ٢٨٠

التأويل الأول : إن طلب الحواريين كان فى ابتداء إيمانهم ، أى قبل استحكام معرفتهم بالله عز وجل .

والقرطبى الذى نقل هـذا الرأى رد عليه بقوله «وهذا فـيه نظر لأن الحواريين خلصان الأنبـياء ودخلاؤهم» ، وفضـلا عما رد به القرطبى فـإننا نضيف : إن الإيمان الذى اسـتجـاب له الحواريون وأعلنوه لم يكن إيماناً جزئيـا ولا محدوداً بل كان من البـداية تاماً وكاملاً .

التأويل الثانى : وهو مـا اطمأن إليـه القـرطبى ، وهو : إن طلب المائدة لم يصدر عن الحواريين ، بل ممن كان معهم .

وسياق الآية ضد هذا الرأى لذلك لم يشـارك القرطبى فيه أى من المفسرين .

التأويل الثالث : أتى به الزمخـشرى ، وأورده الفـخر الرازى ضمن أقواله فى الآية ، وهو : إن الإقـرار للحواريين بالإيمان فى قوله تعالى « **وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى قالوا آمنا** » لم يرد عن الله عـز وجل بـل عنهم أنفـسـهم ، وإنهم لم يكونوا جادين فى ذلك ، بل كانوا مدعين .

ويتعارض هذا الرأى مع الأمر لهم من الله بالإيمان والثابت فى قوله تـعالى «وإذ أوحيت إلى الحـواريين» فضـلا عن أن الله جل شأنه لم يكن ليسجل التماسهم شهادته « . . واشهد بأننا مسلمون» لو لم يكونوا خالصى النية صادقى الإيمان .

التأويل الأخير : قدمه الطبرى ، وهو : إن قوله تعالى «إذ قال الحـواريون» من صلة (إذ أوحـيت) بمعـنى أن الله قـد أوحى إلى الحواريين أن يؤمنوا بعدما سألوا عيسى (هل يستطيع ربك) أى إن طلب المائدة تم أولا ثم أعقبه وحى الله إليهم بالإيمان .

وطبقاً لترتيب الأحداث على هذا النحـو يصبح الحواريون قوماً غير مؤمنين سألوا عيسى عما إذا كان ربه يستطيع أن ينـزل عليـهم مـائدة فـأوحى الله إليـهم أن يؤمنوا به وبرسـوله فـآمنوا ، لكن الطبرى عاد بعد ذلك وطعن فى إيمان الحواريين مستدلاً على ذلك من قـولهم «**نريد أن نأكل مـنهـا وتطمـئن قلوبنـا ونعلم أن قـد صدقتنا**» .

فكأن تقديم الطلب من جانب الحـواريين ، وتأخير الوحى من الله إليهم بالإيمان لم يحقق ما استهدفه الطبرى من رفع التناقض بين طلبهم للمائدة وبين إقرارهم بالإيمان ، فـالترتيب الذى رجحه للأحداث يقتضى افتراض صدقهم وصـحة اعتقادهم ، فما معنى أن يشكك بعد ذلك فى إيمانهم ؟

هذا الخلط والاضطراب فى تأويلات المفسرين يرجع فى معظمه إلى اعتقادهم أن طلب الحـواريين يتعارض مع إقرارهم بالإيمان ، وهذا الذى اعتقدوه غيـر صحيح ، والأمر ليس على النحو الذى ذهبوا إليه ، فكما أن طلب إبراهيم عليه السلام رؤية إحياء الموتى لم يتعارض مع إقراره السابق « ربى الذى يحيى ويميـت » فكذلك

فـإن طلب الحواريين للـمائدة لم يتـعـارض مع إقرارهم الســابق بالإيمان .

ولقد أشار القرطبى إلى ذلك صراحة فى تفـسيره كأحد وجوه الرأى فى الآية رغم أنه لم يرجحه ولم يأخذ به ، قال :

وقيل : إن القوم لم يشكوا فى استطاعـة البارى سبحانه لأنهم كانوا مـؤمنين عارفين عالمين . . وقـد كانوا عالمين باسـتطاعة الله تعالى لذلك ولـغيره علم دلالة وخـبر ونظر فأرادوا عـلم المعاينة كذلك ، كما قـال إبراهيم ﷺ «رب أرنى كيف تحيى الموتى» وقد كان إبراهيم علم ذلك علم خبر ونظر ، ولكن أراد المعاينة التى لا يدخلها ريب ولا شبهة ، لأن علم النظر والخبر قد تدخله الشبهة والاعـتراضـات ، وعلم المعاينـة لا يدخله شىء من ذلك ولذلك قال الحواريــون «و تطمئن قلوبنا » كما قال إبراهيم ولكن ليطمئن قلبى (١)

وهذا الذى جاء به القرطبى صحـيح ، لكنه يحتاج إلى بعض التحديد ، فحديثه عن (علم الخـبر الذى تدخـله الـشبهة ، وعلم المعاينة الذى يطمئن عليه القلب) لا يجوز الاحتجاج به فى جانب الإيمان بوجـود الله . فالحـواس التى أنعم الله بها على الإنـسان تؤدى بذاتها إلى الإقرار بوجود الخالق ، وكما سبق أن أوضحنا ،

(١) تفسير القرطبى . الجزء السادس - صفحة ٣٦٤ وما بعدها

فإن طلب الدليل الإضافى هنا مرفوض سواء من البشر أو الرسل. أما الإيمان بما بعد الموت من بعث وحساب فهو الذى يقوم على الدلالة والخبر ، وتلك حالة وإن كانت تناسب عامة البشر إلا إنها لا تليق بمن اصطفاهم الله واجتباهم ، ومن ثم كان السعى من جانبهم للمعاينة التى تورث اليقين .

بهذا التحديد لما جاء به القرطبى وأشار إليه أيضا الفخر الرازى فى تفسيره ، فإن إقرار الحواريين بالإيمان (قالوا آمنا) يجب صرفه إلى جانب الإيمان بوجود الله ووحدانيته ، أما طلبهم المائدة فقد كان التماساً لدليل حسى على وجود عالم الغيب ، أو كما قال القرطبى : إنهم كانوا . . عالمين - بذلك - علم دلالة وخبر فأرادوا علم المعاينة .

وهنا قد يثور اعتراضان .

الأول : إن التزام المرسل إليهم بالإيمان بالغيب يتحقق بالمعجزة التى تجرى على يدى رسولهم ، وإنه ليس لهم اقتراح معجزة على هواهم .

الثانى : إن طلب المائدة لم يكن له ما يبرره ، فلقد رأى الحواريون من الخوارق والمعجزات ما يفوق إنزال مائدة من السماء.

وفى الرد على الاعتراض الأول فإن وحى الله إلى الحواريين

قد رفعهم فوق عامة البشر درجة ، فحق لهم طلب الدليل ، لكنهم كانوا دون مقام الرسل بدرجات ، وبالتالى فلم يكن لهم أن يطلبوا من الله مباشرة ، كما لم يكن لهم أن يشتطوا فى الطلب ، فلكلٍ درجات ، وما يجوز للرسول لا يجوز لغيره وإذا كان المولى عز وجل لم يعترض على طلب رسله رؤية إحياء الموتى أو رؤية ذاته جل جلاله ، فإن مثل ذلك على البشر محظور. فمكانة إبراهيم عليه السلام أتاحت له أن يسأل مباشرة «رب أرنى كيف تحيى الموتى» أما الذى مر على القرية الخاوية فلم يكن له أن يطلب ، وما صدر عنه «أنّى يحيى هذه الله بعد موتها» كان من قبيل التفكير بصوت مسموع ، وبالمثل لما سأل موسى رؤية ربه حظى طلبه بالعناية والتقدير ، لكن عندما تجرأ اليهود وطلبوا رؤية الله كان الموت صعقاً هو الرد الذى تلقوه على تجاوزهم المدى .

أما عن الاعتراض الثانى ، فالثابت أن رسل الله أنفسهم الذين وافاهم الوحى وجرت على أيديهم المعجزات قد التمسوا الدليل الذى يحقق لهم علم اليقين أو عين اليقين ، فللنفس البشرية نوازعها ودوافعها فى الإعراض عن الممكن والمتاح والتعلق بما تشتهيه وتتمناه . فلقد أشعل قوم إبراهيم له نارا ، وعندما حمى سعيرها ألقوه فيها لكن الله أبطل قدرة النيران على الإحراق وجعلها برداً وسلاماً إلى أن خرج منها إبراهيم تعلوه السكينة

والاطمئنان .

وتلك معجزة بالغة الدلالة على عظمة المولى وقدرته المطلقة .

وهكذا كانت معجزات موسى وعيسى عليهما السلام

لكن المشكلة فى تلك المعجزات أنها أتيحت للرسول دون طلب منه وجرت خلال سيادة صفته النبوية ، ولم تتحقق فى الأوقات التى تسود فيها صفة الرسول البشرية ، وعلى وجه التحديد فى تلك اللحظة التى يطوف فيها التساؤل عن البعث وما بعد الموت ، وتثور بالتالى الحاجة إلى حيازة الدليل الذى تستقر به النفس ويطمئن عليه القلب .

وبالنسبة للحواريين ، فلقد آمنوا بوجود الله ما فى ذلك من ريب ، وإيمانهم فى هذا الجانب يستند إلى الإقرار المسطور فى فطرتهم وإلى وحى الله إليهم وبالأدلة الحسية التى يطالعونها فى وجه الأرض وصفحة السماء ، كما آمنوا بما تنطوى عليه دعوة عيسى من بعث وجزاء ، لكنه إيمان يعوزه الدليل ، ولأن وحى الله إليهم قد رفعهم درجة فإن طلبهم للمائدة كان مشروعاً وجائزاً، لكن عيسى عليه السلام فوجىء بالسؤال (هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء) واستشعر الهدف منه وتغلبت عليه ظروف ميلاده وأملت عليه الرد فرفض الوساطة التى التمسوها فى مقاطعة حاسمة من جانبه قال «اتقوا الله إن كنتم

مؤمنين» لكنهم كانوا مقتنعين بحقهم فى حيازة الدليل ، وأنهم لم يتجاوزوا المسموح لهم به ، قالوا : **نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين** [1]

« . . الأكل من المائدة والشهادة على نزولها ، واطمئنان القلب والعلم بصدق عيسى» .

تلك هى مبررات الحواريين لإنزال المائدة ، والمؤكد أن « الأكل منها والشهادة عليها » كان تكراراً لطلبهم الأصلى غير المبرر «إنزال المائدة» أما الرغبة فى « اطمئنان القلب والعلم بصدق رواية عيسى عن الغيب» فهى الغاية المستهدفة من الطلب . ولقد اضطر الحواريون إلى الإفصاح عن الوسيلة والغاية لسببين :

الأول : ليبينوا لعيسى عليه السلام أن طلبهم المائدة لا يتعارض مع إيمانهم ، وذلك رداً منهم على قوله « اتقوا الله إن كنتم مؤمنين » . .

أما السبب الثانى فإن طلبهم للمائدة كان كطلب إبراهيم عليه السلام رؤية إحياء الموتى ، كلاهما كان ستاراً لهدف آخر ، وفيما يختص بإبراهيم فعندما سأله ربه (أو لم تؤمن) كان عليه أن يعلن عن هدفه الحقيقى فقال « ليطمئن قلبى » وكذلك الأمر بالنسبة للحواريين بعدما عارضهم عيسى أول مرة لم يكن أمامهم إلا

---

(١) سورة المائدة – آية ١١٣

الكشف عمـا فى صدورهم فـقالوا «لتطمئن قلوبـنا ونعلم أن قد صدقتنا» .

عندئذ اقتنع عيسى وقال :

«.. اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السـمـاء تكون لنا عيـداً لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين» (١)

ولأن الحواريين بلغوا آخـر المدى فى المتاح لعامة البشـر ، فقد أصبح عليهم أن يتحملوا عاقبة قرارهم ، وهى كما حددها المولى عز وجل فى قـوله تعالى **«.. إنى منزلها عليكم فـمن يكفر بعد منكم فإنى أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين»** (٢)

هذه الشدة فى المؤاخـذة ، وهذا الوعد الوعيد ليس إلا نتـيجة لاقتحام الحواريين العقبة وتعريض أنفسهم - بطلب المائدة - لبلاء عظيم . وهو يؤكد كل ما ذكرناه آنفا عن أن طلبهم المائدة إنما كان محاولة لاسترقاق النظر إلى عالم الغيب ، يترتب عليها بالضرورة ارتفاع إيمانهم به إلى درجة عـين اليقـين ، ويتحـقق لهم بـذلك - وهم بشـر - إيمان كـإيمان الأنـبيـاء ، فـالإيمان بوجـود الخـالق ووحدانيتـه جاءهم وحياً من الله والإيمان بوجـود دنيا الغيب ثبت لهم بالدليل الحسى ، فجدير بمن يـكفر منهم بعد ذلك أن يفرد له عقاباً خاصاً لأنه حاز دليلاً لم يتيسر لغيره من عامة البشر .

---

(١) سورة المائدة آية ١١٤ (٢) سورة المائدة آية ١١٥

هذا عن الحواريين .

أما عن عيسى عليه السلام ، فبعد ما كشف الحواريون عن هدفهم الحقيقي من إنزال المائدة «تطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا» فقد أصبح واضحا أمامه أن طلبهم ليس إلا محاولة للتثبت من وجود عالم الغيب ، فهل واصل تصديه لهم بما يتمشى مع معجزة ميلاده ، أم استجاب لهم بما يتلاءم مع بشريته ؟

إن الإجابة على هذا السؤال تقتضى استعراض الآيات الخاصة بطلب الحواريين حسبما سجلها القرآن الكريم .

فطلبهم ورد فى قوله تعالى :

« إذ قال الحواريون يا عيسى بن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين » (١)

ومبرراتهم جاءت فور قوله لهم **«اتقوا الله إن كنتم مؤمنين»** قالوا :

«نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين» (٢) .

بعد ذلك فإن الآية التالية مباشرة تكشف أن عيسى عليه السلام لم يتردد ولو للحظة ، بل انحاز إلى الحواريين وتحمس لطلبهم

---

(١) سورة المائدة آية ١١٢

(٢) سورة المائدة آية ١١٣

وسارع برفع أكف الضراعة إلى الله .

« اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السمـاء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين » .

والملاحظ على الآية الأخيرة :

أن عيسى عليه السلام لم يعلـن فحسب عن الغاية والوسيلة ، كما فـعل الحواريون ، بل إنه زاد الأمر إيضاحا فقـرر صراحة أن الهدف من طلب المائدة هو أن تكون . . آية .

أنه عليه السلام لم يكن له طلب الدليل ابـتداء ، كما لم يكن له اخـتيـاره ، وبالتـالى كان عـليه قـبـول العرض الذى طرحـه الحواريون كـما هو أو رفضه ، وقـد ثبت أنه رضى بالدليل الذى حددوه واعتبره . . آية .

أنه أشرك نـفسه فى الـطلب ، فقـال « اللهم ربنا أنزل علينا » ولـم يقل أنزل عليـهم ، وأكد بذلك أنه كـان مثلهم يتطلـع لهذه الآية ويعول على رؤيتها الكثير .

فهـو عليه السـلام بشر يتـحقق له بالحـواس ما لا يتـحقق له بغيرها، ومن هـذا المنطلق له أن يتمسك بقوانين عـالم الشهادة ، لكن الوسيلة التى خـرج بها إلى الحياة لا تصح إلا بقـوانين عالم الغـيب . فـهـو فى جـانب منه يحق له طلـب الدليل كـإبراهيم وموسى عليهما السلام . لكنه فى جانب آخر لا يحق له ذلك .

وإذا كان رفض الفرصة التى عرضت نفسها عليه يتناسب مع معجزة ميلاده فإن قبولها هو الذى يتلاءم مع بشريته . ولقد كشف سياق الآيات وتتابعها أن الغلبة كانت لبشريته فشارك الحواريين طلبهم ولذات الغاية التى استهدفوها وحصل بذلك على دليل حالت ظروف ميلاده دون الحصول عليه .

فطلب إنزال المائدة من جانب عيسى عليه السلام كان كطلب كل من إبراهيم وموسى عليهما السلام ، واختلاف الدليل جاء نتيجة لاختلاف طبيعة وظروف كل رسول عن الآخر ، لكن الهدف بالنسبة لهم كان واحداً ، فالسعى لالتماس دليل على وجود الغيب هو أحد الصفات المشتركة لرسل الله مهما كان بينهم من اختلاف وتباين . وقد ثبت من الدراسة التى تمت لحياة ثلاثة منهم أنهم قد استشرفوا لاختراق حجب الغيب التماسا لدليل حسى يرفع إيمانهم بوجوده إلى درجة عين اليقين ، فهم بشر يحق فيهم قوله تعالى « **والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون** » والوحى الذى يمتازون به لا يلقى بالاً لهواجسهم وهمومهم الشخصية بدليل أن كل من التمس منهم دليلا اتجه إلى ربه مباشرة .

فإبراهيم عليه السلام قال « **رب أرنى كيف تحيى الموتى** » .

وموسى عليه السلام قال « **رب أرنى أنظر اليك** » .

وعيسى عليه السلام شارك الحواريين طلبهم فقال «.. **ربنا أنزل علينا مائدة من السماء**» .

هذه التساؤلات كانت حتمية ولازمة لرسل الله ، ولو لم تكن كذلك لما طرحوها ، ولو لم تكن إجابتهم ضرورية وحاسمة لما استجاب الله لهم .. فهم يتحملون عبء تبليغ الرسالة إلى السفهاء والجهلاء والمتكبرين في الأرض ، وهم يخاطبون من إن سألتهم .. من خلق السموات والأرض ليقولن الله ، لكنهم بعد ذلك يقولون « **أإذا كنا تراباً وآباؤنا أإنا لمخرجون ، لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين**» ، وهي ذات القضية التي فجرها شاعرنا المجهول عند ما قال .

أموت ثم بعث ثم نشر * حديث خرافة يا أم عمرو

فكيف يتعامل رسل الله مع مثل هذا وأمثال هؤلاء ؟ وكيف يبشرونهم بجنة ويخوفونهم من نار وهم مثلهم لم يروا ولم يعاينوا، والوحي الذي يوافيهم لا يفتح لهم أبواب الغيب ليطلعوا ولا يرفع أستاره ليشاهدوا ؟

لقد التمس هذا الدليل وسعى إليه إبراهيم عليه السلام وهو أبو الأنبياء وإمام الموحدين ، كما التمسه وسعى إليه كل من موسى وعيسى عليهما السلام وهم من أصحاب الرسالات الكبرى ، فما هو موقف محمد ﷺ من هذه القضية ؟

ذلك ما نستعرضه تفصيلا فيما يلي

محمد

صلى الله عليه وسلم

في مفتتح دراستنا عن محمد خاتم المرسلين وسيد البشر أجمعين نبدأ بتقرير أن عنوان هذا الكتاب هو « الإيمان والإسراء والمعراج » وأن موضوعه هو : بيان الصلة والارتباط بين الإسراء والمعراج وبين الإيمان ، لكننا حسبما بدا فيما مضى ، وإن اقتربنا كثيراً من حقيقة « الإيمان » إلا أننا أوغلنا فى البعد عن حدث «الإسراء والمعراج» وربما نلتزم ذات النهج فيما هو آت ، فالهدف من هذا الكتاب ليس استعراض الحدث ذاته ودراسته بل بيان الحكمة منه ، أو الإجابة على التساؤلات الآتية :

هل كان من المحتم فى العقيدة الإسلامية أن يتم الإسراء بمحمد ﷺ والعروج به ؟ ولماذا ؟ أم أن هذه الرحلة كانت مجرد تزيد إضافته لا تفيد وحذفه لا يضر ؟

وإذا كان الفكر الإسلامى القديم لم يتعرض لهذه التساؤلات ، فإن الفكر الحديث تعرض لها ، لكنه اتجه فى شبه إجماع إلى الربط بين الإسراء والمعراج وبين حالة الرسول النفسية بعدما فقد زوجته السيدة خديجة وعمه أبا طالب ليرتب على ذلك أن رحلة الإسراء والمعراج تمت لتعزية الرسول وتسليته وتثبيته ، ولتعزيز هذا الرأى روج كثير من الكتاب لقصة وهمية تنسب لرسول الله ﷺ أنه أطلق على عام وفاة زوجه وعمه « عام الحزن» .

ولقد تعرضنا لذلك تفصيلاً فى كتابنا «حقائق الإسراء والمعراج»

بما يغنى عن الخوض فيه هنا ، فضلا عن أن تحرى الحكمة من الإسراء والمعراج التى استهدفناها من هذا الكتاب اقتضت التركيز على موضوع «الإيمان» الذى انتهينا فيه إلى أن رسل الله - فيما يختص بالإيمان بدنيا الغيب - لم يرضوا بالنذر اليسير المتاح لعامة البشر ، وخاض كل منهم تجربة شخصية كانت هامة وحاسمة ، خرج منها وقد اطمأن قلبه واستقر يقينه لأنه اختار الدليل وعاينه.

وإذا كان محمد ﷺ هو المبلغ لأكمل وأعم الرسالات ، والحامل لأثقل وأخطر التبعات ، والمحتاج بالتالى لأعلى وأتم درجات الثقة واليقين ، فهل مر هو الآخر بهذه التجربة كغيره من الرسل ، والتمس دليلاً على وجود الغيب كما التمسوا ؟

لقد استعنا عند دراسة الأمر بالنسبة لرسل الله بما ورد عنهم فى القرآن الكريم ، وكان هدفنا هو الكشف عن ذلك الموقف الذى اعتبرناه محاولة لاختراق حجب الغيب وإلقاء الضوء عليه ، وقد استدعى ذلك التمهيد بدراسة موجزة لسيرة كل منهم على حدة ، بيد أننا لا نستطيع أن نتبع ذات الأسلوب بالنسبة لمحمد صلوات الله وسلامه عليه ، فكمّ المعلومات والتفاصيل المتوافرة عن حياته لا يقبل الإجمال أو الإيجار ، وإذا كان بعضها قد ورد فى القرآن الكريم ، فإن أكثرها جاء فى كتب الحديث ومجلدات السيرة . ومن ثم - والتزاماً بالهدف من هذا الكتاب- فسوف

يقف تناولنا للسيرة النبوية عند تحديد ما إذا كان محمد ﷺ قد التمس كغيره من الرسل رؤية ماله صلة بعالم الغيب ابتداء بالبعث ومروراً بالحساب والجزاء والجنة والنار وانتهاء بذات الله عز وجل .

وفى بيان ذلك نعلن أن كتاب الله لم يسجل موقفاً لرسول الله ﷺ يمكن تأويله بأنه محاولة للنفاذ من بين أستار الغيب .

فلا هو طلب صراحة ومباشرة رؤية إحياء الموتى

ولا عكس لسانه ما يدور داخل نفسه فتساءل «أنَّى يحيى هذه الله بعد موتها»

ولا هو طلب رؤية ربه .

ولا هو استجاب لإلحاح القرشيين بإنزال آية ، ولا دعا ربه أن يجيبهم إلى ما طلبوه (١)

لم يسجل القرآن الكريم شيئا من ذلك ولا قريباً منه .

لكن كتب السيرة والحديث احتوت على حديثين فى واحد منهما إشارات عامة ،وفى الثانى إشارات محددة ، لكن أحدهما

---

(١) سجل القرآن الكريم ذلك فى قوله تعالى [وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا . أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا . أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا . أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه] سورة الإسراء . الآيات من ٩٠ - ٩٣

صحيح والآخر متهالك وضعيف .

أما عن الحديث الصحيح فقد استعرضناه عند دراسة «قصة إبراهيم» وهو قول محمد عليه الصلاة والسلام « نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال رب أرنى كيف تحيى الموتى » .

وبغض النظر عن الخلاف بين المفسرين حول ما إذا كان إبراهيم عليه السلام قد شك أم لا ، فظاهر ألفاظ الحديث تدل على أن الحيرة إن كانت قد تسللت إلى صدر إبراهيم فإن تسللها إلى صدره صلوات الله عليه يكون أقرب وأيسر ، وإن إبراهيم إن كان قد شك فإن محمداً أولى أن يشك .

لكن الحديث - كما هو واضح - مبنى على تقرير حق الرسول كبشر فى أن يشك ، أما ممارسة هذا الحق فلم يعلنها الحديث أو يؤكدها ، وما يعنينا هنا ليس تقرير الحق كمبدأ ، بل ممارسته فعلاً وعملاً . وفضلاً عن ذلك فقد سبق أن أوضحنا عند دراستنا التفصيلية لهذا الحديث أن ما صدر عن رسول الله لم يكن على معنى إثبات الشك فى جانبه بل كان بقصد رفع الحرج عن إبراهيم بمشاركته مفهوم (الشك) المنسوب إليه فى قوله تعالى «وإذ قال إبراهيم رب أرنى كيف تحيى الموتى قال أو لم تؤمن . .» .

فقوله صلوات الله وسلامه عليه « نحن أحق بالشك من إبراهيم . .» لا يفيد فى نصه أو مقتضاه أنه قد شك فتساءل أو انتابته الحيرة فطلب .

هذا عن الحديث الصحيح .

أما عن الحـديث الآخر فقد أثبـته ابن سعد فى الطبـقات تحت باب «ذكر المعراج وفرض الصلوات» .

قال : أخـبرنا محمـد بن عمر ، عن أبى بكر بن عـبدالله بن أبى سبرة وغـيره من رجاله ، قالوا : كـان رسول الله ﷺ يسأل ربه أن يريه الجنة والنار ، فلما كان ليلة السبت لسبع عشرة خلت من شهر رمضان قبل الهجرة بثمانية عشر شهراً ورسول الله ﷺ نائم فى بيتـه ظهراً أتاه جـبريل وميكائيل فـقالا : انطلق إلى ما سألت الله . . فعرجا به السموات سماء سماء (١)

ولو صحت هذه الرواية لكان مـحمد ﷺ قد سعى كـغيره من الرسل إلى اخـتراق حـجب الغيب ، لأن الهـدف من رؤية الجنة والنار لم يكن السياحة أو التسـلية أو مجـرد تزجية الفـراغ ، بـل الاطلاع على دليل من عـالم الغيب ، به يطمـئن القلب ، وعليه يستقر اليقين ، وبذلك يستوى صلوات الله وسلامه عليه مع غيره من الرسل ، فـإبراهيم عليـه السـلام سأل ربه ، وكـذلك فـعل موسى وعيسى عليهما السلام ، فإذا جاء محمد ﷺ وطلب رؤية الجنة والنار فليس هناك ما يلفت النظر أو يسـتدعى العجب ، بل إن هـذا الطلـب ليمـثل واسـطة العقد المفقـودة ، فإبراهـيم عايـن

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد - جزء أول - صفحة ١٤٢

الخطوة الأولى من عالم الغيب ، وموسى عـاين المشهد الأخير ، وها هو ذا محمد يسعى لمعاينة المرحلة الوسطى .

لكن رواية ابن سعد غير صحيحة وأسـانيده فيها غير موثقة ، وإذا كان هو أول من جاء بهـا فقد كان كذلك آخـرهم إذ أهملتها كتب الحـديث لفقدانهـا شروط الصحة ، كـما طرحهـا المحدثون والمفسرون ، ويلفت النظر أنـه على كثرة مـا أوردوه مـن روايـات عليلة ومختلقـة عن الإسراء والمعـراج ، فلم يعتمد على رواية ابن سعـد منهم أحد ولـم يـذكـرها أحد فـيمـا عدا ابن حـجر الذى انتقدها فى كتابه «فتح البارى» (١)

هذا عن شكل رواية ابن سعـد ، أو ما يسميه عـلماء الحديث بالسند أى حظ الرواة من العدل والتجريح والثقة والتكذيب ، أما عن موضوعـها فهو كـذلك غير صحـيح ، وحتى بالنسبة لـغير المتخصصين فإنه من السهل اكتشاف فساد ما جاء به ابن سعد عن الإسراء والمعراج ، فالأحاديث الصحيحة على أن الإسراء تم ليلاً إلى بيت المقدس ، ثم أعقبه المعراج إلى السموات العلا . أما ابن سعد فيروى أن المعراج تم من مكة ظهراً ثم تلاه الإسراء بعد ستة أشهـر مخـالفاً بذلك - كـما قـال ابن حجـر - لما فى الروايات الصحيحة فى الأمرين معاً .

---

(١) راجع رواية ابن سعد عن الإسراء والمعراج كاملة وتعليقنا عليها فى كتابنا (حقائق الإسراء والمعراج) صفحة ٦٩ وما بعدها

نستطيع إذن أن نطرح رواية ابن سعد ثم نقرر أنه لم يرد سواء فى القرآن الكريم أو السنة الصحيحة موقف واحد يفيد صراحة أو ضمناً أن محمداً ﷺ قد استسلم لهواجس الشك فالتمس دليلاً على وجود الغيب ، لكن هذا الذى قررناه يحتاج إلى تدعيم ، إذ قد تكون هناك آية لم نلتفت إليها أو حديث لم نحط به ، ودون هذا التدعيم فإن حديث ابن سعد - على ضعفه الأكيد - يكتسب قوة غير حقيقية ، يصبح معها قرينة على عكس ما قررناه .

ولتأكيد ما ندعيه من ناحية ، ولتمحيص حديث ابن سعد من ناحية أخرى فإنه يلزم مراجعة واستعراض كتاب الله آية آية ، فحرص القرآن الكريم على تسجيل مثل هذه المواقف الشخصية للرسل السابقين لم ينبع من أهميتها فحسب ، بل ومن ضرورتها لكمال الرسالة ولزومها ليقين الرسول ، وعلى ذلك فلو أن محمداً ﷺ طلب رؤية الجنة والنار أو التمس دليلاً آخر لسجل القرآن الكريم ذلك كما سجله لغيره من الرسل .

وتوفيراً للجهد فى المراجعة المطلوبة ، وتحديداً لها فى نفس الوقت سوف نقتصر على متابعة ما ورد فى القرآن الكريم عن الفعل «قال» وسيغنينا هذا عن مراجعة آياته آية آية ، فالقول هو الانعكاس المادى لما فى الصدور من مشاعر وأحاسيس ، ومن خلاله يتم الإعلان عما يطوف بالعقل من تساؤلات ، وبه يجرى الكشف عن كل ما تتطلع إليه النفوس من رغبات وأمنيات .

ولقد تردد هذا الفعل بصيغه المختلفة فى القرآن الكريم أكثر من أى فعل آخر ، إذ بلغ ١٨٢٤ مرة ، والمضارع من الفعل «يقول» والماضى «قال» والأمر «قل» والفارق بينهم المبنى على قواعد اللغة معروف للجميع ، بيد أننا سنركز على فارق آخر يهمنا فيما نحن بصدده .

فصيغة فعل الأمر «قل» تعنى أننا بصدد إرادتين ، إحداهما قوية مسيطرة ، تريد أن تحدد وتوجه ، لكنها تسخر إرادة أخرى لإعلان قولها ، أو هى مطمئنة بغيرها واثقة تنيبها فى إذاعة رأيها ونشر وجهة نظرها ، وفى الحالتين فإن ما يصدر عن المأمور أو المكلف - بخيره وشره - لا ينسب إليه ، بل ينتسب مباشرة إلى من أصدر الأمر أو قضى بالتكليف .

أما صيغتى الماضى «قال» والمضارع «يقول» فهما لا تعبران فحسب عن كلام قيل فى الماضى أو يقال فى الحاضر لكنهما بالإضافة إلى ذلك تفيدان أن ثمة قيمة يسيرة أو عظيمة لإرادة القائل ، فقوله صدى لخطرات فكره وخلجات نفسه ، فهو منسوب إليه ، ونطقه تعبير عن رأيه واعتقاده فهو محسوب عليه . .

وتصديقاً لما سلف ، فالقارىء لكتاب الله يستطيع أن يطالع مواقف عديدة عبر فيها الفعل «قال» والفعل «يقول» عن قدرة

المتكلم أو عجزه ، ضعفه أو قوته ، فساد طويته أو نقاء سريرته ، طغيانه وكفره أو إيمانه وتقواه ، فضلاً عن أن هذا الفعل كان سبيل الجميع - بشـراً ورسلاً - لاختراق أسوار عـالم الغيب والنفاذ من بين أستاره ، فإبراهيم عليه السلام قال :

«رب أرنى كيف تحيى الموتى»

وموسى عليه السلام ، قال :

« رب أرنى أنظر إليك» .

والحواريون ، قالوا :

« يا عيسى بن مريم هـل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء ».

وعيسى عليه السلام ، قال :

« اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء »

والذى مر على القرية الخاوية ، قال :

« أنّى يحيى هذه الله بعد موتها »

وعلى ذلك ، فلو أحطنا بأقوال محمد ﷺ فسنقف على وجه الحق فيـما إذا كان قـد طلب من ربه أو التمس ، وسنعـرف ماذا طلب وماذا التمس .

فكم مرة قال ﷺ فى القرآن الكريم ، وماذا قال ؟

ولنبدأ بالفعل المضارع

ورد هذا الفعل فى القرآن الكريم بصيغة المخاطب «تقول» والغائب «يقول» ثمانين مرة ، ومن خلاله تم الإفصاح عن رأى القائل وعقيدته ، مثل

«فمن الناس من يقول ربنا آتنا فى الدنيا . .» البقرة ٢٠٠

«إذ تمشى أختك فتقول هل أدلكم على من يكفله . .»
طه ٤٠

« إذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض غرّ هؤلاء دينهم . .» الانفال ٤٩

وقد نسب القول فى هذا الفعل لله سبحانه وتعالى وللملائكته ورسله وعباده المؤمنين والظالمين والمنافقين ، أما بالنسبة لمحمد عليه الصلاة والسلام فقد قال ثلاث مرات فقط نستعرضها فيما يلى :

جاءت المرة الأولى فى قوله تعالى **« إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين»** (١)

وقصة الآية كما رواها الطبرى : أن كرز بن جابر المحاربى كان

---

(١) سورة آل عمران – آية ١٢٤

يريد أن يمد المشركين ببدر فشق ذلك على المسلمين. ويبدو أن وقع هذا الخبر على المسلمين كان شديداً ، فهم بعد قلة يخوضون أولى معاركهم ضد عدو يفوقهم عدداً وعدة ، وتأييداً لهم أوحى الله إلى رسوله أنه سيمدهم بجند من الملائكة ، ونقل الرسول هذه البشرى إلى المسلمين ، وسجل القرآن الكريم ذلك فى قوله تعالى « إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة . . » .

فقول الرسول هنا لم يكن اعتقاداً شخصياً أو هاجساً داخلياً ، بل كان وحياً بلغه عن ربه فنقله ﷺ إلى المؤمنين تثبيتاً وتطمينا .

أما المرة الثانية فقد جاءت فى قوله تعالى «**إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا . .**» (١) .

وقد نزلت هذه الآية فى غزوة تبوك فى العام التاسع الهجرى عندما دعا الرسول إلى قتال الروم وتهيب بعض المسلمين ذلك واعتذروا عن المشاركة ، فعاتبهم الله ، وذكرهم برحلة الهجرة وكيف نصر رسوله عندما اقتفى المشركون أثره إلى أن وقفوا على مدخل الغار، وامتلأ قلب أبى بكر رعبا وهو يهمس « لو نظر أحدهم إلى موضع قدمه لأبصرنا » ، فرد رسول الله باطمئنان

---
(١) سورة التوبة آية ٤٠

وثبات « ما ظنك باثنين اللـه ثالثهما » . وسـجل القرآن الكريم هذا الموقف فى قوله تعالى «. . إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا» .

أما القـول الأخير لرسـول الله فقد ورد فى قـوله تعالى « **وإذ تقول لـلذى أنعم الله عليه وأنعـمت عليه أمـسك عليك زوجـك واتق الله وتخفى فى نفـسك ما الله مبـديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه. .** » [1]

وعن قصة الآية يقول القرطبى : روى عن على بن الحسين أن النبى ﷺ كـان قد أوحى الله تعـالى إليـه أن زيداً يطلق زينب ، وأنه يتزوجها بتزويج الله إياها ، فلما تشكى زيد للنبى ﷺ خلق زينب ، وأنها لا تطيـعه ، وأعلمه أنه يريد طلاقهـا قال له رسول الله ﷺ على جهة الأدب والوصية : اتق الله فى قـولك وأمسك عليك زوجك ، وهو يعلم أنه سـيفـارقها ويتـزوجهـا ، وخشى رسول الله ﷺ أن يلحقه قـول من الناس فى أن يتزوج زينب بعد زيد وهو مولاه ، وقد أمره بطلاقهـا ، فعاتبه الله على هذا القدر من أن خشى الناس فى شىء قد أباحه الله له ، بأن قال «أمسك» مع علمه بأنه يطلق ، وأعلمه أن الله أحـق بالخشية ، أى فى كل حال . [2]

---

(١) سورة الأحزاب – آية ٣٧

(٢) تفسير القرطبى الجزء الرابع عشر – صفحة ١٩٠ ، ١٩١

تلك هى الأقـوال الثلاثة التـى نسبت إلى رسـول الله ﷺ ، ويلحق بهـا للارتبـاط - ولو أنه من باب الفـعل الماضى - قـوله تعالى «**ولا على الذين إذا مـا أتوك لتـحملهـم قلت لا أجد مـا أحملكم عليه** »[1].

وقد نزلت هذه الآية أيضـا فى غزوة تبوك فى فـقراء المسلمين الذى تحمسـوا لقتال الروم وعرضوا أنفـسهم على رسول الله ﷺ يلتـمسـون عنده وسيلة السـفر ، قـال ﷺ معـتذراً «لا أجـد ما أحملكم عليه» .

وإذا صح أن القول الأول «**ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائـكة**» كـان وحيـاً من الله لرسـوله ، فإن الأقـوال الأخرى «**لا تحزن إن الله معنا**» و «**أمسك عليك زوجك**» و «**لا أجـد ما أحملكم عليه**» قد تضمنت فى الظاهر رأياً ذاتيـاً للرسـول عبر فيـه عن وجهة نظر شخصيـة ، بيد أن واقع الأمر ليس على هذا النحو .

ونحن لسنا بصدد نفى أو إثبات القول فى جـانب محمد عليه الصلاة والسـلام ، فقد حفلت الأحاديث الـصحيحة بالكـثير من أقواله ، لكـننا بصدد تحليل مـا سجله القـرآن من هذه الأقوال ، لتحديد ما إذا كان ﷺ قـد التمس مـن ربه أو طـلب دليلا علـى

---

(١) سورة التوبة - آية ٩٢

وجود الغيب ، وذلك هو هدفنا الذى نتقصاه - لكننا سنمد مجال البحث ليشتمل على بيان ما إذا كان ﷺ قد طلب أو التمس ما له علاقة بشخصه أو بذاته .

والملاحظ على حديثه ﷺ سواء لأبى بكر أو لزيد أو لفقراء المسلمين ، أنه لم يتضمن التماساً لدليل على وجود عالم الغيب، كما لم يشتمل على طلب شخصى أو رغبة ذاتية ، فضلاً عن أنه قد ارتبط بظروف تخص الآخرين ولا تخصه صلوات الله وسلامه عليه ، وأنه لم يكن البادىء بل فرضت عليه التداعيات أن يقول فقال ، فبالنسبة لأبى بكر كان على الرسول الا يدعه نهباً للخوف فى موقف تتزلزل فيه الجبال ، وبالنسبة لزيد فقد سعى إلى الرسول طلباً للرأى والنصيحة ، وبالنسبة لفقراء المسلمين فإن ردهم عن الجهاد - الذى سعوا لينالوا شرفه - قد اقتضى ذلك الاعتذار النبوى الكريم ، فأهمية الأقوال فى هذه المواقف على وجه الخصوص هى التى بررت رفع درجة توثيقها من مرتبة الحديث النبوى إلى مرتبة النص القرآنى . وعلى أى وجه فلا هى اشتملت على طلب تقدم به الرسول إلى ربه أو التماس رفعه إليه، ، ولا هى تضمنت رأيا معبراً عن الإرادة أو مفصحا عن الذات .

هذا عن الفعل المضارع ، أما عن الماضى «قال» فسوف نستعرضه مفصلا لكثرة ووضوح الأمثلة الخاصة به .

ونبدأ بذلك المثال من سورة القصص عن قارون وقومه فى قوله تعالى :

«إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين . وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد فى الأرض إن الله لا يحب المفسدين» (١)

قال « **إنما أوتيته على علم عندى . .** » (٢)

ثم إنه خرج على قومه فى زينته .

فقال «**الذين يريدون الحياة الدنيا ياليت لنا مثل ما أوتى قارون إنه لذو حظ عظيم**» (٣)

ورد عليهم الذين أوتوا العلم .

قالوا « **. . ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً ولا يلقاها إلا الصابرون**» (٤)

فنحن حيال أقوال مختلفة عبر بها أصحابها عن اعتقادهم وعقيدتهم ، فالعاقلون من قوم موسى نصحوا قارون . .

---

(١) سورة القصص – آية ٧٦ ، ٧٧
(٢) سورة القصص – آية ٧٨
(٣) سورة القصص – آية ٧٩
(٤) سورة القصص – آية ٨٠

قالوا «**لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين**» وقولهم هذا صدر عن اعتقادهم بأن كثرة النعم توجب الشكر لله لا جحد فضله ، والإحسان إلى الناس لا البغى عليهم .

فكان رد قارون أن . .

قال «**إنما أوتيته على علم عندى**» وهو بما قال عبر عن نفسه التى استغنت واستكبرت لكثرة ما جمعت وكنزت . فالقول يعكس نظرة صاحبه ورأيه ، ويكشف عما فى صدره من زيغ وبهتان أو إيمان وتقوى ، فالذين غرتهم الحياة الدنيا وزخرفها . .

قالوا : **ياليت لنا مثل ما أوتى قارون إنه لذو حظ عظيم** .

أما الذين يعلمون أنما الحياة الدنيا متاع الغرور فقد . .

قالوا : **ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا** .

مثال آخر نأتي به من كتاب الله أيضا ، فعندما أرادت ملكة سبأ اختبار مصداقية سليمان بإرسال الهدايا إليه ، أراد هو أن يستعرض أمامها نعم الله عليه ، وخطرت له فكرة إحضارها هى وعرشها إلى بلاطه وبين يديه ، فأعلن عما اختمر فى نفسه .

قال « **يا أيها الملأ أيكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين** »(١)

---

(١) سورة النمل - آية ٣٨

واستجاب لهذا النداء عفريت من الجن قدر المهمة المطلوبة والصعوبات التى تكتنفها والوقت الذى تستغرقه . .

فقال: **أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك. .** (١)

وهنا انبرى من عنده علم من الكتاب طوى به حواجز المكان والزمان :

قال . . **أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك. .** (٢)

فسليمان قال وأفصح عما فى صدره ، وعفريت الجن قال ، والذى عنده علم من الكتاب قال ، وعبر قول كل منهم عن إمكاناته وقدراته .

هذه المواقف التى تكشف عن مفهوم «القول» وردت فى القرآن الكريم فى مواضع كثيرة ، ولسنا هنا بصدد حصرها ، لكننا نكتفى منها بهذا المثال الأخير ، يقول جل شأنه فى سورة المائدة :

«واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق إذ قربا قرباناً فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر قال . . لأقتلنك قال . . إنما يتقبل الله من المتقين . لئن بسطت إلىّ يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدى إليك لأقتلك إنى أخاف الله رب العالمين» (٣)

فنحن أمام أخوين شقيقين . . امتلأت نفس الذى رُفِض قربانه شراً وغلا ، وحمل شقيقه مسئولية ما حاق به فانفجر فى صدره

(١) سورة النمل – آية ٣٩ (٢) سورة النمل – آية ٤٠

(٣) سورة المائدة – آية ٢٧ ، ٢٨

بركان من الحقـد الأعمى . . قال : **لأقتلنك** . رد الآخـر بلسان يكشف عن نفس تفيض إيماناً ورحـمة ، فأوضح لأخيـه ما غاب عنه .

قال : **إنما يتقبل الله من المتقين** .

لكنه رأى الإصرار فى عينيه على تنفيذ وعيده

فقال : **لئن بسطت إلىّ يدك لتـقتلنى ما أنا بـباسط يدى إليك لأقتلك** .

فقـول القـاتل صدر عن نفس خـضعت لسطوة البـغى والأثرة والعدوان .

وقول القتـيل أفصح عن قلب امتلأ بالتقوى ونفس اسـتعذبت إسلام الوجه لله .

ولقد ورد الفـعل (قال) للمفرد المذكـر فى القرآن الكريم ٥٣٢ مرة .

كما ورد الفعل (قالا) للمثنى ثلاث مرات

أما الفعل «قالت» للمفردة المؤنثة أو للجمع فقد ورد ٤٣ مرة . والفعل «قالتا» ورد مرة واحدة .

والفعل «قالوا» ورد ٣٣٢ مرة .

وبالنسبـة للفعل «قـال» الذى ورد ٥٣٢ مرة فقـد نسب القول كثيراً لله عز وجل ، من مثل قوله تعالى :

«وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة . . »
البقـــرة ٣٠

«إذ قال الله يا عيسى إنى متوفيك ورافعك إلىّ . . »
آل عمـــران ٥٥

« قال لن ترانى ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى . . »
الأعـــراف ١٤٣

« وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين . . » النحـــل ٥١

كذلك نسب الفعل «قال» لأنبياء الله ورسله ، كقوله تعالى :

على لسان إبراهيم عليه السلام

« قال إبراهيم فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب . . »
البقـــرة ٢٥٨

« وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناماً آلهة . . »
الأنعـــام ٧٤

«وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إننى براء مما تعبدون»
الزخـــرف ٢٦

وعلى لسان موسى عليه السلام

« فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين»
الأعـــراف ١٤٣

« وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالاً فى الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم . . » يونس ٨٨

« قال رب إنى قتلت منهم نفساً فأخاف أن يقتلون»

القصص ٣٣

وعلى لسان عيسى عليه السلام

«فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصارى إلى الله . . »

آل عمران ٥٢

« قال سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق»

المائدة ١١٦

وعلى لسان يوسف عليه السلام .

« وقال للذى ظن أنه ناج منهما اذكرنى عند ربك . . »

يوسف ٤٢

« قال اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم»

يوسف ٥٥

وعلى لسان يعقوب عليه السلام

«قال يا بنى لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا . . » يوسف ٥

« قال لن أرسله معكم حتى تؤتونى موثقاً من الله . . »

يـوسـف ٦٦

وعلى لسان نوح عليه السلام

« قال لاعاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم . . »

هــــود ٤٣

« ونادى نوح ربه فقال رب إن ابنى من أهلى . . »

هــــود ٤٥

وعلى لسان هود عليه السلام

« وإلى عاد أخاهم هوداً قال يا قـوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إن أنتم إلا مفترون »

هــــود ٥٠

« قال إنى أشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركون »

هــــود ٥٤

وعلى لسان صالح عليه السلام

« وإلى ثمود أخاهم صالحاً قـال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها . . »

هــــود ٦١

« قـال يا قـوم أرأيتم إن كـنت علـى بينة من ربـى وآتنى منه رحمة . . »

هــــود ٦٣

وعلى لسان لوط عليه السلام

« قال يا قوم هؤلاء بناتى هن أطهر لكم فاتقوا الله ولا تخزون فى ضيفى أليس منكم رجل رشيد » هـــــود ٧٨

« قال لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد »

هـــود ٨٠

وعلى لسان شعيب عليه السلام

« قـال يا قوم اعـبدوا الله مـا لكم من إله غيـره ولا تنقصـوا المكيال والميزان . . » هـــود ٨٤

« قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى ورزقنى منه رزقاً حسناً ومـا أريـد أن اخـالفكم إلى مـا أنهـاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقى إلا بالله . . » هـــود ٨٨

وعلى لسان زكريا عليه السلام

« قال رب هب لى من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء»

آل عمـــران ٣٨

« قـال رب أنّى يكون لى غـلام وقـد بلغنى الكبـر وامـرأتى عاقر . . » آل عمـــران ٤٠

وعلى لسان داود عليه السلام

« قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه . . » ص ٢٤

وعلى لسان سليمان عليه السلام

« فقال ما لى لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين . لأعذبنه عذاباً شديداً أو لأذبحنه أو ليأتينى بسلطان مبين »

النمل ٢٠ ، ٢١

«قال رب اغفر لى وهب لى ملكاً لا ينبغى لأحد من بعدى . . » ص ٣٥

وعلى لسان إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام

« قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين» الصافات ١٠٢

وعلى لسان هارون عليه السلام

« قال يبنؤم لا تأخذ بلحيتى ولا براسى . . » طه ٩٤

وعلى لسان لقمان عليه السلام

« وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بنى لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم » لقمان ١٣

وعلى لسان أحد أنبياء بنى إسرائيل لم يعرفه القرآن

« وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا . . »

البقرة ٢٤٧

وأما بالنسبة لأيوب عليه السلام فقد رفع قوله إلى درجة الاستغاثة والاستضراخ

« وأيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين»

الأنبياء ٨٣

ونفس الشىء بالنسبة ليونس عليه السلام :

« فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين »

الأنبياء ٨٧

كذلك فقد نسب القول للخضر عليه السلام

« قال فإن اتبعتنى فلا تسألنى عن شىء حتى أحدث لك منه ذكرا »

الكهف ٧٠

وفضلاً عما سلف فقد ورد القول كثيراً على لسان البشر على اختلاف طوائفهم ومشاربهم ومن ذلك :

المؤمنون :

« قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله . .»

البقرة ٢٤٩

« وقال الذين آمنوا إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم . .»

الشورى ٤٥

الكافرون :

« وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا . . » إبراهيم ١٣

« وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه . . » فصلت ٢٦

الظالمون :

« وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلاً مسحورا » الفرقان ٨

المتكبرون :

« قال الذين استكبروا إنّا بالذى آمنتم به كافرون» الأعراف ٧٦

المشركون :

« وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء . . » النحل ٣٥

والذين لا يرجون لقاء الله :

« قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله . . » يونس ١٥

والذين لا يعلمون :

« وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية . . » البقرة ١١٨

كذلك نسب القول لفرعون

« قـال يا قوم أليس لى ملـك مصـر وهذه الأنهار تجـرى من تحتى . . » الزخرف ٥١

كما ورد القول منسوباً لإبليس

« قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين» ص ٧٦

وللشيطان :

« وقـال الشـيطان لما قضـى الأمر إن الله وعـدكم وعـد الحق ووعـدتكم فـأخلفـتكم ومـا كـان لى عليـكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى . . » إبراهيـم ٢٢

ولخزنة النار :

« وقال لهم خـزنتها ألم يـأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا . . » الزمـــــر ٧١

وجاء مضافاً لمن فى النار :

« وقال الذين فى النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوماً من العذاب » غـافـــر ٤٩

وهذا كله عن الفعل «قـال» أما عن المثنى «قالا» فـقد ورد فى القـرآن الكـريم ثـلاث مرات ، مرة منسوباً إلى موسـى وهارون ،

وأخرى إلى داود وسليمان ، أما الثالثة فهى لآدم وحواء وذلك فى قوله تعالى :

« قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين » الأعراف ٢٣

وأما عن المفرد المؤنث «قالت» فقد ورد فى القرآن الكريم ٤٣ مرة ، منها ما جاء على أصل الفعل ، مثل :

« إذ قالت امرأة عمران رب إنى نذرت لك ما فى بطنى محرراً . . » آل عمران ٣٥

« قالت رب أنّى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر . . » آل عمران ٤٧

« قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه . . » يوسف ٥١

ومنها ما جاء لينسب القول إلى طوائف وجماعات ، مثل

« وقالت النصارى ليست اليهود على شىء . . » البقرة ١١٣

« وقالت اليهود يد الله مغلولة . . » المائدة ٦٤

أما الفعل «قالتا» للمثنى المؤنث فقد ورد مرة واحدة منسوباً لامرأتى مدين اللتين سقى موسى إبلهما ، وذلك فى قوله تعالى :

« قالتا لا نسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير »
القصص ٢٣

أما الفعل «قالوا» للجمع فقد ورد ٣٣٢ مرة

منسوبا للملائكة مثل

« قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء . . »
البقرة ٣٠

« قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا . . » البقرة ٣٢

وللمؤمنين ، مثل :

« قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين » البقرة ٢٥٠

وللجن ، مثل :

« فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجباً . يهدى إلى الرشد فآمنا به . . »
الجن ١، ٢

وللكافرين

« وقالوا إن هى إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين»
الأنعام ٢٩

ولأهل الجنة

« وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء . . » الزمـــــر ٧٤

ولأهل النار

« وقالوا ربنا إنَّا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا »
الأحزاب ٦٧

وهكذا . . فـالفعل «قـال» بصيـغه المخـتلفة تكرر فى الـقرآن الكريم ٩١٢ مـرة منسـوبا إلى : اللـه عـز وجل ، وإلى رسـله الكرام ، وإلى عباده الصالحين والمؤمنين والمتقين ، وإلى الكافـرين والظالمين والـفـاسـقين ، وإلـى الشـيطان وإبلـيس ، وإلى الجن والعفـاريـت ، وإلـى رجـال ونسوة معروفين ومـجهولين ، وإلى الطير .

فقد نسب القول إلى هدهد سليمان

« فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين »
النمـــل ٢٢

وإلى الحشرات :

« قـالت نملة يا أيهـا النمل ادخلـوا مسـاكنكم لا يـحطمنكم سليمان وجنوده . . » النمـــل ١٨

وعــن طـريــق هــذا الفعــل أفصــح الجمـيع عـن مشاعرهم

وانفعالاتهم ، أمانيهم ومعتقداتهم ، سخطهم أو رضاهم ، إيمانهم أو كفرهم ، فالقول كان وسيلة التعبير عن الذات والإرادة، عن الفكرة والرؤية بغض النظر عن سمو الفكرة أو انحطاطها ، صواب الرؤية أو خطئها .

وفى القرآن الكريم ورد الفعل «قال» منسوباً

لموسى عليه السلام ٧١ مرة
ولإبراهيم عليه السلام ٣٧ مرة
ولنوح عليه السلام ١٩ مرة
وليوسف عليه السلام ١٨ مرة
وللوط عليه السلام ١٣ مرة
وليعقوب عليه السلام ١٢ مرة
ولشعيب عليه السلام ٩ مرات
ولسليمان عليه السلام ٩ مرات
ولعيسى عليه السلام ٨ مرات
ولهود عليه السلام ٧ مرات
ولصالح عليه السلام ٦ مرات

كذلك فقد نسب القول فى القرآن الكريم للذين كفروا والذين ظلموا والذين استكبروا ٦٢ مرة ، أما الذين آمنوا والذين أوتوا العلم فقد قالوا ٣٣ مرة ، وأما الشيطان وإبليس فقد نسب لهم القول ١٤ مرة .

وإذا كـان القرآن الكريم هو الكتـاب الذى أنزل على مـحمـد ﷺ، أفلا يدعونا ذلك إلى التساؤل عن نصيبه من الفعل «قال» وكم مرة «قال» وعبر بقوله عن إرادته وأفصح عن مشاعره وكشف عن وجهة نظره كـغيره من الرسل حتى نعرف مـا إذا كان ﷺ قد طلب من ربه أو التمس ، وماذا طلب وماذا التمس .

إن المراجعة الدقـيقة لكتاب الله تثـبت أن الفعل الإرادى «قال» لم يرد منسوبا لمحمد عليـه الصلاة والسلام سوى ثلاث مرات من بين ٥٣٢ مرة ورد بها فى صيغـة المفرد المذكر و٩١٢ مرة ورد بها فى كافة صيغ الماضى .

ولنر متى وكيف قال ﷺ وماذا قال :

القول الأول : فى مفتتح سورة الأنبياء نقرأ قوله تعالى :

بسم الله الرحمن الرحيم

« اقترب للناس حسابهم وهم فى غـفلة معرضون . ما يأتيهم من ذكـر من ربهم محـدث إلا استمـعوه وهم يـلعبون . لاهـية قلوبهم وأسـروا النجـوى الذين ظلموا هل هـذا إلا بشر مـثلكم أفتأتون السحر وأنتم تبصرون »

ثم .. **«قال ربى يعلم القول فى السماء والأرض وهو السميع العليم»**

وفى قراءة نافع للآية الأخيرة يرد الفعل «قال» على الأمر «قل ربى يعلم القول»

والمعنى من تفسير القرطبى : أى لا يخفى عليه شىء مما يقال فى السماء والأرض ، وفى مصاحف أهل الكوفة «قال ربى» أى قال محمد ربى يعلم القول ، أى هو عالم بما تناجيتم به . وقيل إن القراءة الأولى «قل ربى» أولى ، لأنهم أسروا هذا القول فأظهر الله عز وجل عليه نبيه ﷺ ، وأمره أن يقول لهم هذا ، قال النحاس : والقراءتان صحيحتان ، وهما بمنزلة الآيتين ، وفيهما من الفائدة أن النبى ﷺ أمر وأنه قال كما أمر [١]

فما قاله ﷺ كان أمراً من الله ، إما مباشرة بالفعل «قل» أو أطلعه الله على أمر القوم وأوحى إليه أن يقول فقال .

القول الثانى : وقد ورد أيضا فى سورة الأنبياء ، إذ تجرى الآيات الأخيرة منها على النحو التالى :

«قل إنما يوحى إلىّ أنما إلهكم إله واحد فهل أنتم مسلمون . فإن تولوا فقل آذنتكم على سواء وإن أدرى أقريب أم بعيد ما توعدون . إنه يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون . وإن أدرى لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين»

ثم يعقب ذلك

---

(١) تفسير القرطبى . الجزء الحادى عشر – صفحة ٢٧٠

«قال رب احكم بالحق وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون»

وهنا أيضا فإن قراءة نافع للآية الأخيـرة يأتى فيها الفعل «قال» على صيغة الأمر «قل رب احكم بالحق»

لكن الواضح أن الوضع فى هذه الحالة يختلف عنه فى الحالة السابقة ، فللرســول هنا دور إيجابى ، فهو يدعــو إلى عبادة الله الواحد القهار وإسلام الوجه له ،لكن هذا العرض من جانبه يقابل بالرفض من جانب المرسل إليهم .

فماذا يفعل صلوات الله عليه مع هؤلاء المعرضين ؟ وماذا يقول لهم ؟

الثابت من الآيات أن هناك إصراراً واضــحاً على إبعاد الرسول صلوات الله وسلامه عليه عن الصراع المحتدم ، وأن عليه أن يبلغ الأمر الصادر له من الله ويلتزم به «فإن تولوا فقل . . آذنتكم على سواء» والمعنى كما ورد فى تفسير الطبرى :

«أعلمهم أنك وهم على علم من أن بعـضكم لبعض حرب لا صلح بينكم ولا سلم» .

ثم تمضى التعليمات صريحة ومحددة «وقل لهؤلاء المشركين ما أدرى متى الوقت الذى يحل بكم عقـاب الله الذى وعدكم فينتقم به منكم ، أقريب نزوله بكم أم بعيد» .

وقل لهم : إن الله يعلم الجهر الذى يجهرون به من القول ويعلم ما تخفوته .. فإن أخر عنكم عقابه على ما تخفون من الشرك به أو تجهرون به فما أدرى ما السبب الذى من أجله يؤخر ذلك عنكم ، لعل تأخيره ذلك عنكم مع وعده إياكم لفتنة يريدها بكم ، ولتتمتعوا بحياتكم إلى أجل قد جعله لكم تبلغونه ، ثم ينزل بكم حينئذ نقمته (١)

بعد هذا العرض للدعوة والرفض لها ، والشد والجذب والوعد والوعيد الذى تحقق كله من خلال فعل الأمر «قل» تتاح الفرصة فى نهاية الأمر لمحمد عليه الصلاة والسلام أن «يقول» وتعطى له الكلمة وهو صاحب الدعوة المرفوضة فإذا به - وهو طرف فى الخصومة - يأبى أن يكون حكماً فيها ، فلا هو قضى على المعاندين بالكفر . ولا أقام عليهم الحجة ، ولا وجّه لهم اتهاماً ، بل رفع أمرهم إلى الله يقضى فيهم بما يشاء قال : رب احكم بالحق .

ولعله من المناسب أن نستعرض هنا موقف نوح من القضية ذاتها وفى بيانها يقول عز وجل :

« إنّا أرسلنا نوحاً إلى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم . قال يا قوم إنى لكم نذير مبين» (٢)

---

(١) شرح هذه الآيات من تفسير الطبرى . الجزء السابع عشر - صفحة ١٠٧

(٢) سورة نوح - الآيات ١ - ٢

لكنهم أعرضوا ، فـرفع نوح الأمر إلى ربه . . **«قال رب إنى دعوت قومى ليلاً ونهاراً . فلم يزدهم دعائى إلا فرارا»** (١)

فلمـا تمادوا فى غيّـهم لم يرجع إلى ربه ، بـل نصّب نفسـه حكماً فقال **«رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا»** ثم عزز حكمه بالأسباب فأضاف **«إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفارا»** (٢)

فنوح لـم يكتـف بالحكم على مـعـاصـريه بالكفـر ، بل بسط حكمه على ذريتهم وقضى عليهم بالفناء ، أما محمد عليه الصلاة والسلام فقد فوض أمر خصومه إلى الله ، فالكلمة الأخيرة عنهم لن تكون له ، والقول الفصل فيهم لن يصدر عنه .

القول الثالث : وقد ورد فى قوله تعالى :

« وإذ أسر النبى إلى بعض أزواجه حديثاً فلما نبأت به وأظهره الله عليه عـرف بعضه وأعرض عن بعض فلما نبـأها به قالت من أنبأك هذا قال . . نبأنى العليم الخبير» (٣) .

وتتلخص القصة الـتى تشير إليها الآية فى أن الرسـول كان قد استودع إحدى زوجاته سراً أوصاها بكتمانه ، لكنها نقلت الحديث إلى زوجة ثانية وعـرفـه الله بمـا حـدث ، وإذ عاتبـها رسـول الله

---

(١) سورة نوح – الآيات ٥ – ٦ (٢) سورة نوح – الآيات ٢٦ – ٢٧

(٣) سورة التحريم – آية ٣

ظنت أو خشيت أن تكون الزوجة الثـانية هى التى فضحت أمرها فسألته عمن بلغه خبر نقضها للعهد .

قالت من أنبأك هذا ؟

قال نبأنى العليم الخبير . وعندما يسأل المرء عن مـصدر علمه فيـقول : أخـبرنى زيد أو عمـرو أو قرأته فى كـتاب ، فـهو فى الحقيقة لم يقل ما يعبر به عن ذاته أو يفصح عن إرادته .

ذلك هو كل ما ورد فى القرآن الكريم من أقوال منسوبة لمحمد عليه الصلاة والسلام .

فى المرة الأولى أعلن بديهية إيمانية «ربى يعلم القول فى السماء والأرض» .

وفى الثـانيـة فـوض أمـر المخـالفين لـه إلى الله «رب احكم بالحق» .

وفى الثالثة أبان عن مصدر علمه «نبأنى العليم الخبير» .

وعلى ذلك فإن القرآن الكريم لم يشتمل فى حقيقة الأمر على «قول» واحد لرسول الله ﷺ مما يمكن اعـتباره إفصاح عن الذات أو تعـبيـر عن الإرادة فضـلا عن أن يكون التمـاساً لآية أو طلبـاً لدلـيل . هذا فى الوقت الذى قال فيه رسل الله جميعا وأفصحوا وطلبوا والتمسوا ، وقال غيـرهم قولاً كثيراً وقولاً خطيرا ، وعلى سبيل المثـال فقد بلغ نصيب فرعـون من الفعل الإرادى «قال» ٢٦

مرة ، ملأها كفراً واستعلاء وظلماً حتى اشتط فقال : أنا ربكم الأعلى .

ولا يجوز تبرير هذا الموقف بأنه المطابق لمقتضى الحال على زعم أنه فيما يختص بقصص السابقين التى جاءت فى القرآن الكريم فقد كان من المحتم استعمال الفعل الماضى «قال» أما بالنسبة للأحداث التى عاصرها محمد ﷺ ونزل القرآن الكريم ببيانها فقد تعذر استعمال صيغة الفعل الماضى ، وبالتالى لم يسجل القرآن الكريم قولاً حقيقياً واحداً لرسول الله ﷺ ، فما سلف ليس صحيحاً من وجهين :

الأول : إن ندرة الأقوال المنسوبة له ﷺ على صيغة الماضى «قال» لا تقابلها زيادة فى تلك المنسوبة له على صيغة المضارع «يقول»

الثانى : إن القرآن الكريم كلام الله ، وهو حسب الرأى الراجح أزلى وغير مخلوق ، ولا مجال للربط بين أزمان الأفعال فيه وتاريخ الحدث الذى نزلت بتسجيله الآية .

فالتعبير بالفعل الماضى «قال» ورد كثيرا عن مواقف ومشاهد يوم القيامة التى لم تتحقق بعد ، من ذلك

«قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا » طه ١٢٥

«وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم . .» الزمر ٧١

«وقال الذين فى النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوماً من العذاب» غافر ٤٩

كما أن الفعل الماضى «قال» قد نسب لرسول الله ﷺ أربع مرات ، والمضارع « يقول » نسب ثلاث مرات ، لكنه لم ينطق فى أى منها بما يعبر عن وجهة نظره أو يفصح عن دخيلة نفسه ، أو يكشف عن حاجة شخصية أو رغبة ذاتية .

ويزداد الأمر تأكيداً عندما نتبين أن رسول الله ﷺ قد مر بمواقف عديدة كان من الطبيعى أن يتكلم فيها ويقول ،لكن التحليل الدقيق للآيات أثبت أن عزل مشاعره وإبعاد رد فعله البشرى كان معنياً ومقصودا .

ونحن نطالع قوله تعالى :

«وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً . أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً . أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتى بالله والملائكة قبيلاً أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه».

تلك هى مطالب القرشيين أو شروطهم للإيمان ، وللرسول أن يختار أيا منها ، فإن تحقق على يديه آمنوا به . ولو تخيلنا رسولاً آخر غير محمد عليه الصلاة والسلام لكان قد حدد الرد من خلال

تقديره الشخصى للموقف ، فإن رأى أن الأمر يستدعى تلبية طلبهم لقال : اللهم ربنا فجر لنا من الأرض ينبوعا.

وإن رأى أنهم اشتطوا فى طلبهم لقال : اتقوا الله

وإن رأى أن تحقيق ما طلبوه ليس بيده لقال على لسانه : هل كنت إلا بشراً رسولاً

لكن الأمر بالنسبة لمحمد ﷺ ليس على هذا النحو ، فخطة القرآن الكريم فى هذا الموقف وأمثاله هى : تحديد تصرفات هذا الرسول الخاتم ورسم ردود أفعاله حتى لا تكون انعكاساً لمشاعره الذاتية ، أى حتى لا يكون لرحمته أو سخطه ، لرضاه أو غضبه ، لحبه أو كرهه دخل فى تحديد رد فعله قولاً كان أم عملاً مصداقاً لقوله تعالى **«وما ينطق عن الهوى . إن هو إلا وحى يوحى»** (١)

لذلك فالرد على عرض القرشيين يكون بالتوجيه الإلهى ، بفعل الأمر :

قل سبحان ربى هل كنت إلا بشراً رسولا .

وفى القرآن الكريم عديد من المواقف التى تؤيد هذا النظر .

فهناك تسجيل لموقف إبراهيم عليه السلام عندما جادله قومه ، وذلك فى قوله تعالى :

---

(١) سورة النجم – آية ٣ ، ٤

«وحاجه قومه قال أتحاجوني في الله وقد هدان ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئاً وسع ربي كل شيء علماً أفلا تتذكرون . وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون» (١)

هكذا تدخلت إرادة إبراهيم وقدراته الشخصية فى إعداد وصياغة رده المفصل .

أما بالنسبة لمحمد ﷺ فى الموقف نفسه فالتوجيه الإلهى يفرض عليه الرد .

«فإن حاجوك . . فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعنِ . .»

آل عمران ٢٠

كذلك فعندما تملك اليأس نوحاً من هداية قومه فإنه قال . . **« رب إنهم عصونى واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خساراً .** نوح ٢١

أما محمد ﷺ ففى الظروف ذاتها يصدر له التوجيه :

« فإن عصوك فقل . . إنى برىء مما تعملون »

الشعراء ٢١٦

---

(١) سورة الأنعام – الآية ٨٠ ، ٨١

وأثر الجانب الشخصي أو الإرادي للرسل على تصرفاتهم له في القرآن الكريم شواهد عديدة . فنوح عليه السلام عندما كذبه قومه وقالوا :

«مجنون وازدجر» فإنه دعا ربه **«أني مغلوب فانتصر»** (١)

كذلك فعندما سخروا منه وهو يصنع الفلك فإنه قال **« إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون »** (٢)

وموسى عليه السلام لما جمع له فرعون السحرة ، فإنه قال لهم **« ويلكم لا تفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى »** (٣)

وهود عليه السلام لما سخر قومه من دعوته وطالبوه بإنزال ما يعدهم به من العذاب فإنه قال **« قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب اتجادلونني في أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما نزّل الله بها من سلطان فانتظروا إني معكم من المنتظرين »** (٤)

هذه التصرفات ذات الطابع الشخصي ، والمتأثرة بالقطع بمشاعر كل رسول وانفعالاته لم تتحقق بالنسبة لمحمد عليه الصلاة والسلام ، ففي كافة المواقف ينزل الوحي بفعل الأمر «قل» محدداً الرد والتصرف ، من ذلك :

---

(١) سورة القمر – آية ٩ – ١٠

(٢) سورة هود – آية ٣٨

(٣) سورة طه – الآية ٦١

(٤) سورة الأعراف – الآية ٧١

«وكذب به قومك وهو الحق قل..لست عليكم بوكيل» الأنعام ٦٦

«فإن كذبوك فقل .. ربكم ذو رحمة واسعة..» الأنعام ١٤٧

«فإن رجعك الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل .. لن تخرجوا معى أبدا ولن تقاتلوا معى عدوا..» التوبة ٨٣

«يعتذرون إليكم إذا رجعتم إليهم قل .. لا تعتذروا لن نؤمن لكم ..» التوبة ٩٤

«فإن تولوا فقل .. حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت ..» التوبة ١٢٩

«فإن عصوك فقل .. إنى برىء مما تعملون..» الشعراء ٢١٦

هذا التوجيه الإلهى لمحمد ﷺ لا يقتصر على مواقف بعينها ، بل هو جزء من خطة عامة ، فقد شاء رب العزة الذى اصطفى محمداً ورباه واختصه بأعظم وأكمل الرسالات أن يجعل شخصية رسوله قرآنية وقوله ربانيا .

والقرآن الكريم يكمل بعضه بعضاً ويفسر بعضه بعضاً ، وإذا كنا قد رأينا أن محمداً ﷺ لم يكن له نصيب فى الفعل الإرادى «قال ويقول» فلنر كم كان نصيبه ونصيب غيره من فعل الأمر «قل» .

والأصل أن أوامر الله ونواهيه يتم توجيهها مباشرة منه عز

وجل ، فهو وحـده الخالق والكل له عبيد ، فإذا فـوض عبداً من عباده فى تبليغ كلمته وحدد لـه فى كل موقف ما يقول وما يفعل فذلك فـضل ما بعـده فضل وتكريم مـا فوقه تكـريم ، إذ يصبح المكلف هنا نائباً عن ربه ، مفصحـاً عن إرادته أو مشمول برعايته وعنايتـه ، وبهذا المعنى فـقد صـدر الأمر الإلهى من فـوق سبع سماوات مفتتحا بقوله تعالى «قل» ٣٣٢ مرة ، منها :

واحدة لنوح عليه السلام فى قوله تعالى :

«أم يقولون افتراه قل إن افتريته فعلىّ إجرامى . .» هـود ٣٥

وواحدة لموسى عليه السلام فى قوله تعالى :

«اذهب إلى فرعون إنه طغى . فقل هل لك إلى أن تزكى»
النازعات ١٧ ، ١٨

ثم ثلاث مرات صدر فيها الأمر الإلهى «قل» من منطلق التنويه والاهتمـام موجهاً الخطاب مـباشرة من العلى العظيم لبنى البـشر جميـعاً بمنهاج معاملة الوالدين وذلك تمشـياً مع خطة الإسلام فى إكرامهـما والإحسان إليـهما والعناية بأمـرهما ، وبصياغـة يشعر القارىء ، أو المستمع لها أنه المقصود بها دون غيره ، وذلك قوله تعالى :

«وقضى ربك ألا تعـبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسـانا إما يبلغن عندك الكبر أحـدهما أو كلاهما فـلا تقل لهما أف ولا تنهـرهما

وقل لهما قولا كريما . واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا » (١)

ثم **« وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولاً ميسورا »** (٢)

أما باقى المرات وعددها ٣٢٧ فقد كان التكريم والتفويض والعناية والتوجيه من نصيب محمد عليه الصلاة والسلام .

فى الصغير من الأمور والكبير ، الهين والخطير ، الخاص والعام يصدر التفويض الإلهى إلى محمد عليه الصلاة والسلام بالفعل «قل» .

ونحن نقرأ الآيات :

« يسألونك عن الأهلة قل .. هى مواقيت للناس والحج .. »

البقرة ١٨٩

« قل .. يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجا .. » آل عمران ٩٩

« قل .. إن الأمر كله لله .. » آل عمران ١٥٤

« وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل .. كل من عند الله .. » النساء ٧٨

---

(١) سورة الإسراء - آية ٢٣ ، ٢٤ (٢) سورة الإسراء - آية ٢٨

«قل .. إنى أمرت أن أكون أول من أسلم..» الأنعام ١٤

«وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل .. سلام عليكم..»
الأنعام ٥٤

«قل .. إن الله لا يأمر بالفحشاء..» الأعراف ٢٨

«قل .. أمر ربى بالقسط..» الأعراف ٢٩

«قل .. يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا..»
الأعراف ١٥٨

«يا أيها النبى قل لمن فى أيديكم من الأسرى .. إن يعلم الله فى قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم..» الأنفال ٧٠

«قل .. لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا..» التوبة ٥١

«قل .. ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى..» يونس ١٥

«قل للمؤمنين .. يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم..»
النور ٣٠

«قل .. أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة..» القصص ٧١

«قل .. لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل..»
الأحزاب ١٦

«قل .. إن ربى يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر..» سبأ ٣٦

«قال من يحيى العظام وهى رميم . قل .. يحييها الذى أنشأها أول مرة..» يس ٧٨ ، ٧٩

«قل للمخلفين من الأعراب .. ستدعون إلى قوم أولى بأس يد..» الفتـــح ١٦

قالت الأعراب آمنا قل .. لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا..»

الحجرات ١٤

«يمنون عليك أن أسلموا قل .. لا تمنوا علىّ إسلامكم..»

الحجـرات ١٧

«قل .. ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة..» الجمعة ١١

«قل .. إنى لا أملك لكم ضراً ولا رشدا» الجـن ٢١

«قل .. يا أيها الكافرون .لا أعبد ما تعبدون» الكافرون ١, ٢

«قل .. أعوذ برب الفلق» الفلـــق ١

«قل .. هو الله أحـد» الإخـلاص ١

وحتى فى حياة الرسول الخاصة ، داخل بيته وبين أزواجه يصدر له التوجيه الإلهى :

«قل لأزواجك .. إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحاً جميلا» الأحـزاب ٢٨

«قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين .. يدنين عليهن من جلابيبهن..» الأحـزاب ٥٩

فحرمانه صلوات الله وسلامه عليه فى القرآن الكريم من القول المعبر عن الإرادة والذى بدا - للوهلة الأولى - مثيراً للدهشة كان منتظراً ومتوقعاً ، فهو ﷺ محل عناية ربه ورعايته ، قريب إلى

درجة لا يملك معها أن يقول فيترجم عن مشاعره ، أو ينطق فيفصح عن ذاته ، فهو فى مقام لا وجود فيه لغير الله ولا تعامل إلا من خلال «قل» التى تعنى التفويض وتقصد الإنابة والتكريم والتى ترددت فى القرآن الكريم ٣٣٢ مرة بلغ نصيب محمد ﷺ منها ٣٢٧ مرة .

إن خطة القرآن الكريم فى إصدار التوجيه إلى محمد ﷺ بالأمر الإلهى «قل» واضحة ومقصودة ، هدفها أن يكون الرسول قرآنياً فى قوله وفعله ، قرآنياً فى نطقه وصمته ، قرآنيا فى علاقاته مع الآخرين وفى ردود أفعاله تجاههم ، وذلك كله مصداقاً لقوله تعالى **«قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين»** وهى آية يصف فيها الرسول نفسه ، وبالتالى كان من المتوقع أن ترد على لسانه فيقول «إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين» لكن حتى فى مجال الإفصاح عن الذات يصدر له التوجيه بـ «قل» إن صلاتى ونسكى .

هذه الخطة الفذة فى نسبة الفعل «قال» والفعل «قل» للنبى الأمى لا يعقل أن تكون وليدة تدبير ذكى من محمد ﷺ ، ولا يتصور أن تكون مصادفة غير مقصودة ، وإن الإصرار على هذه الخطة ليؤكد أن محمداً بن عبد الله ليس فحسب رسولاً كغيره من الرسل ، بل هو متحدث باسم ربه ، ناطق بكلمته ، ولعل هذا

المبدأ قد أشيـر إليه أكثر من مرة ، أشيـر إليه ضمناً فى أول آيات الوحى «اقرأ باسـم ربـك» فقد أعـقب ذلك نزول «قل» ٣٢٧ مرة ينطق بعدها محمد فيشرع ويبين ، ويحل ويحرم ، ويطلق ويقيد ، يفعل ذلك فى إطار الـتفويض الإلهى «اقـرأ باسم ربك» حتى إن وحدانيـة الله عندما تبلورت فى أدق وأصفى صـورها قد أعلنت إلى البشر على لسان محمد من خلال «قل هو الله أحد» .

كما أشير إلى ذات المبدأ صراحة فى حديث رسول الله «أدبنى ربى فـأحسن تـأديبى» ، وكذلك فى قـول السـيدة عـائشـة عنه صلوات الله وسلامـه عليه «كان خلقـه القرآن» فمـا نطق به كان وحيـاً من خلال «قـل» وما فعلـه كان امتـثالاً لأمـر ربه ، وفى الحالتين لـم يكن لمشاعره أو انفعالاته دخل فيما صدر عنه .

ولا يعنى ما سلف أنه ﷺ كان مـسلوب الإرادة أو أن مشاعره وانفعالاته كانت معطلة ، فالبـشرية لا يمكن أن تفرض عليه اسماً ووصفـاً ثم تعطل واقعـاً وفعلاً ، ومع صـراع الحيـاة وصخبـها المتلاطم حوله فإنه ﷺ ينفعل ويتأثر ، فيغضب ويرضى ، ويقبل ويرفض ، ويحب ويكره ، ويستقل بتقييم مقدمات الأمور وتقدير نتائجهـا ، فإن طابق ذلك كله وحياً صريحـا من الله ، أو إلهاماً ألقـاه الله فى قلبه فـعندئذ يكشف صلوات الله عليـه عن أفكاره ومشـاعره ،ويكون ما يصـدر عنه من قول أو فـعل أو تقرير سنة يلتزم المسلمون بها ، أما ما انفرد به صلوات الله وسلامه عليه من

دون الخلق جميعا بشراً ورسلاً وملائكة (1) فهو أن مشاعره الخاصة وتفاعلاته الداخلية إن لم تؤيد بوحى صريح أو إلهام ضمنى فإنها تبقى ، أو يجب أن تبقى عديمة الأثر على تصرفاته الخارجية ، بل إنها يجب ألا تتعدى حدود فؤاده إلا أن ينزل بالإعلان عنها وحى كريم ، فإن لم ينزل فإن محمداً لا يفصح ولا يكشف لأنه لا يقول كغيره من الرسل ولا نصيب له فى «قال» كنصيبهم .

ولتأكيد ما سلف نستعرض مرة أخرى بعض ما سجله القرآن الكريم لرسل الله ، يقول جل شأنه :

«ولما جاءت رسلنا لوطاً سيء بهم وضاق بهم ذرعاً وقال هذا يوم عصيب» هود ٧٧

«وأيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين» الأنبياء ٨٣

«وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه . .»

الأنبياء ٨٧

---

(1) فيما يختص بانفعالات الرسل ومشاعرهم فقد سبق أن أشرنا إلى العديد منها ، أما عن مشاعر الملائكة فقد وردت فى قوله تعالى (وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك) سورة البقرة - آية ٣٠

جاءت رسل الله من الملائكة إلى لـوط فى هيئة البشـر ، فلما رأى حسنهم وجمالهم توقع افتتـان قومه بهم فغشيه الهم والضيق وأعلن عن توجسه فقال «هذا يوم عصيب» .

أما أيوب فقـد ابتلاه الله فى نفسه وأهله ، فلمـا طالت محنته رفع صوته بالشكوى فقال «رب إنى مسنى الضر» .

وأما يونس فـقد غضب من قومـه لكفرهم وعنادهم ، وتملكه اليأس من هدايتهم فرحل عنهم وتخلى عن إبلاغهم رسالة ربه .

فرسل الله كـانوا ينفعلون بما يحـيط بهم من أحداث خارجـية وبما يسـتـشـعرونـه من أحاسـيس داخلـية وينـعكس ذلك على تصرفـاتهم فى أقوال كـان من الأوفق كتـمانهـا وأفعـال كان من الأحوط اجتنابها .

ولقد مـر محمد ﷺ بمـثل ما مر به غيـره من الأنبياء ، فـقد جرح وأصـيب فى جـسده ، وابتلى فى ولده وأهله ، وضـاقت عليه الأرض وأحاط به الأعداء واجتمع عليه السفهاء ، وكان لكل ذلك وقعه عليه لكن أثره كـان محصوراً فى الإطار الداخلى للنبى الذى كان له أن يـنفعل ويتألم كـغيـره من الرسل ، لكن ليس له مثلهم أن يشكو أو يتبرم لأن كلام محمد الرسول يتحدد فى إطار « قل » الإلهية .

وتطبيقا لذلك نطالع فى القرآن الكريم المواقف الآتية :

الموقف الأول : كان ﷺ شديد الألم لكفر قومه ، يتملكه الأسف لإعراضهم عما جاءهم به من الحق ، والضيق لاستمساكهم بما هم عليه من باطل ، والحزن لما ينتظرهم من خسران الدنيا والآخرة ، يجتمع عليه ذلك كله حتى ليكاد اهتمامه بأمرهم أن يهلكه ، وحتى ليوشك حرصه عليهم أن يقضى عليه، ورغم ذلك فما ينطق به محمد الرسول لا يفصح عن مشاعر محمد الإنسان لأن الأول يعلم أنه **«وما على الرسول إلا البلاغ المبين»**(١) كما أنه يلتزم بالتوجيه الإلهى **« فإن تولوا فإنما عليك البلاغ المبين»** (٢) واحتراقه الداخلى من أجل هداية قومه لو بدا فى انفعال ملموس لتعارض مع النص الواضح **«ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء. . »** (٣)

وإذا كان تفويض محمد فى إعلان الإرادة الإلهية قد استلزم كتمانه لإرادته البشرية ، فقد تولى ربه تسجيل مشاعره العظيمة وتقدير رأفته النبيلة بقومه ، عندما كشف عن ذلك كله فى قوله تعالى :

«فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا» (٤)

كذلك فعندما ثقل عليه أذى قومه وساءه افتراؤهم عليه

---

(١) سورة النور – آية ٥٤
(٢) سورة النحل – آية ٨٢
(٣) سورة البقرة – آية ٢٧٢
(٤) سورة الكهف – آية ٦

واستهزاؤهم به فإنه ﷺ لم يتململ ولم يتضرر ، بل حبس آلامه وكتم أشجانه حتى نزل الوحى معلنا عن هذا الاحتمال الكريم والصبر الجميل ، وذلك فى قوله تعالى :

«ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون» (١)

الموقف الثانى : عندما مات عبدالله بن رسول الله هلل الكافرون واستبشروا ، وتولى العاص بن وائل التعبير عن مشاعرهم ، قال : لا يهمنكم بعد اليوم أمر محمد فقد أصبح أبتر ، ومهما طال به العمر فسيقضى بعد حين نحبه ، ولا ولد له ينهض بالأمر من بعده وينافح عن ميراثه الفكرى فلا يلبث أن يذبل وتذروه الرياح .

ويشتمل هذا الموقف على جانبين : الأول هو حق الرسول فى أن يكون له ولد من صلبه ، والثانى هو تلك الضربة الموجعة التى وجهها العاص بن وائل إلى رسول الله ﷺ لأن ما يمس المرء من ألسنة السوء إن صادف حقيقة فقد أصاب مقتلاً .

وبالنسبة للجانب الأول ، فمحمد بشر ، وهو عربى ابن مجتمع بلغ به حب الذكور أن كان الرجل يسود وجهه إذا بشر بالأنثى ويصبح نهباً لصراع مرير ، أيبقى عليها مكرهاً أو يودعها الأرض ويهيل عليها التراب .

---

(١) سورة الحجر - آية ٩٧

وما على محمد القرشى من شىء إن تاقت نفسه أن يرزقه الله بصبى آخر . أما محمد رسول الله فقد كان من حقه ، وهو صاحب الدرجة العالية ، والمكانة الرفيعة ، أن يتضرع إلى ربه كما فعل زكريا فى نفس الموقف ، فيقول **«رب لا تذرنى فرداً وأنت خير الوارثين»** (1)

لكن ذلك لو حدث لأفصح عن تعارض ما بين إرادة الله ألا يكون لمحمد ذرية من الذكور ، وبين رغبة محمد أن يكون له ولد. وأدب محمد مع ربه فوق هذا ، فهو ﷺ يخضع لمشيئة ربه فى صورتيها ، الإيجابية التى يصدر فيها التوجيه بالأمر «قل» والواقعية التى يفرض الله فيها عليه قضاءه وقدره ، وامتثال محمد لمشيئة ربه فى صورتيها واحد ، فكما أنه لا يستطيع أن يصف من كذب به بأنه كفر أو ضل ، أو أنه من أصحاب الجحيم ، فكذلك لا يملك أن يرفع يديه الى السماء متضرعاً - بعدما فقد ابنه - **«رب لا تذرنى فرداً وأنت خير الوارثين»** .

أما عن ذلك السهم المسموم الذى أطلقه العاص بن وائل فإنه ﷺ لم يكن يملك رده أو الانتقام من صاحبه ، فكما أنه - فيما يمس العقيدة ذاتها - يلتزم فى الرد على المكذبين والمعرضين والمعارضين بما يحدده له الوحى ، فإنه من باب أولى يلتزم بذلك فيما يمسه فى شخصه وليس له أن يرد الاعتداء أو يدفع التعدى ما

---

(1) سورة الأنبياء - آية ٨٩

لم يأذن له الله .

لكن ، هل يكون قدره تلقى الصـدمة وابتلاع الإهانة ثم كظم غيظه وكتم ما يجيش فى صدره من غضب وانفعال ؟

إن إجابة هذا السؤال يحددها قوله تعالى **«ما ودعك ربك وما قلى»** فهذه الآية الكريمة لم تنزل - فحسب - لإنهاء موقف خاص انتـاب القلق فيـه محـمداً لانقطاع الوحى حـتى تندر المشـركون وقالوا : «إن رب محمد قـلاه» ، هذه الآية نزلت لتعلن عن كفالة دائمة ورعاية مستـمرة ومبدأ متبع ينعم فيه مـحمد بعناية وحماية ربه كمقابل لصـبره على كتمان مشاعـره ، وإلى ذلك يشير قوله تعالى **«واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا»** (١)

وإذا كانت مشاعر الأبوة الجـريحة فى نفس رسول الله تتحرق شوقا للانتقام ، فى حين أن محمداً لا يملك الرد ، فإن الله يدافع عن رسوله ، ويرد اللطمة على صاحبها فينزل قوله تعالى :

« إنَّا أعطيناك الكـوثر . فصـل لربك وانحـر . إن شـانئك هو الأبتر » (٢)

وسواء أكـان (الكوثر) نهراً فى الجنة أوتيـه محـمد ﷺ أو أنه الكثرة الكثيـرة من كل خير وفضل ، فقد اشـتملت آيات السورة الكريمة على :

---

(١) سورة الطور - آية ٤٨ (٢) سورة الكوثر

* إعلان محمد بإرادة ربه ألا تكون له ذرية من الذكور حتى ينصرف عن التطلع لهذا الأمر .

* تعويضه ﷺ عن هذا الحرمان بما هو خير منه وأبقى .

* الانتقام من العاص بن وائل ورد السهم الذى أطلقه إلى نحره .

فإمساك محمد عن الرد لا يعنى أن يصبح حرمه مستباحاً أو أن يمر العدوان عليه بسلام لأن الله يتولى حماية رسوله ويقوم بإفحام المتطاولين عليه ، ومعظم ما ورد فى القرآن الكريم من تجريح لأشخاص بعينهم كقوله تعالى **«إن شانئك هو الأبتر»** إنما كان لهذا الغرض ، ومثله أيضا قوله تعالى **«تبت يدا أبى لهب وتب»** فقد نزلت رداً على قول أبى لهب لمحمد ﷺ «تبا لك سائر اليوم أما جمعتنا إلا لهذا» وذلك بعد ما نادى ﷺ حتى اجتمع عليه قومه وعرض عليهم الإسلام فكان أن بادره أبو لهب بهذه الإهانة ، وكان الرد الحاسم عليه من الله .

ولذات السبب نزل قوله تعالى فى زوجة أبى لهب **«وامرأته حمالة الحطب . فى جيدها حبل من مسد»** وذلك لتعمدها إيذاء رسول الله وإلقائها الأشواك فى طريقه .

الموقف الثالث : فى بداية الدعوة شاءت إرادة الله أن تكون قبلة المسلمين إلى بيت المقدس ، لكن رسول الله ﷺ كانت له

رغبة شخصية أن لو كانت إلى البيت الحرام بمكة .

ولو تصورنا رسولاً آخر مكانه لرأيناه ضارعاً متوسلاً إلى الله، فرغبات الأنبياء لا تقف حبيسة صدورهم ، إنما تتجسد فور اختمارها فى التماسات يرفعونها إلى الله .

فأمل زكريا تبلور فى قوله **«رب لا تذرنى فرداً وأنت خير الوارثين»** (١)

ورحمة نوح بابنه بدت فى قوله **«رب إن ابنى من أهلى وإن وعدك الحق . .»** (٢)

وبر إبراهيم بأبيه ظهر فى قوله **«سلام عليك سأستغفر لك ربى إنه كان بى حفيا»** (٣)

وإذا كان الله قد استجاب لتضرع زكريا ورزقه الولد ، فإن الأمر بالنسبة لكل من نوح وإبراهيم عليهما السلام لم يكن كذلك، فبالنسبة لنوح كان رد الله عليه **« يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح . .»** (٤)

وأما إبراهيم فقد عدل عن طلبه من تلقاء نفسه كما يبين من قوله تعالى **«وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه . .»** (٥)

---

(١) سورة الأنبياء - آية ٨٩ (٢) سورة هود - آية ٤٥ (٣) سورة مريم - آية ٤٧
(٤) سورة هود - آية ٤٦ (٥) سورة التوبة - آية ١١٤

لكن الثابت هو أنه ليس على الأنبياء حرج فى أن يكون لكل منهم تطلعاته ورغباته ، وفى أن يعلنها ويبديها حتى لو كشفت الأحداث فيما بعد عن استحالة إجابتها ، فهم جميعا يكشفون عما فى صدورهم ويقولون .

أما بالنسبة لمحمد ﷺ المختص بالتفويض الإلهى «قل» فإنه لا يستطيع أن يقول ، وإذا كانت رغبته الدفينة بين الضلوع أن تكون قبلة المسلمين إلى المسجد الحرام بمكة ، فإن العليم بذات الصدور كما اهتم من قبل بمشاعر رسوله ، فإنه لا يهمل رغباته وفى اختصار معجز ينزل الوحى مفصلاً حالة الرسول النفسية **(قد نرى تقلب وجهك فى السماء)** ومحققا له أمنيته التى طال شوقه إليها **«فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره . . »** (١)

ففيما يختص بمحمد رسول الله ﷺ فإنه يلزم التفرقة :

بين أقواله وأفعاله ، وهذه لا تتم إلا فى حدود التوجيه الإلهى « قل » وذلك امتياز لم يتحقق لغيره من البشر أو الرسل .

وبين مشاعره وانفعالاته ، وهذه يستوى فيها مع غيره ، فهو يغضب ويرضى ، ويحب ويكره ، ويتمنى ويزهد ، لكن ذلك وغيره من الخواطر البشرية لم يكن له أن يتعدى حدود صدره قولا

(١) سورة البقرة – آية ١٤٤

على لسانه أو طابعا يؤثر على أفعاله .

ولقد رأينا من الأنبياء من تطير دون مبرر .

ومن وعد بالاستغفار لمن لا يجب له الاستغفار .

ومن دعا الله أن يستأصل شأفة قومه .

وفى هذه المواقف وأمثالها قال كل رسول وكشف بقوله عما يجول بخاطره ، وأفصح بلسانه عن وجهة نظره . . فالمبادرة إلى القول وإبداء الرأى بالنسبة لهم هى المبدأ العام والقاعدة المتبعة .

أما بالنسبة لمحمد عليه الصلاة والسلام ، فقد ثبت لنا مما سلف :

أن حرصه على هداية الغافلين من قومه واهتمامه باستمالة المعرضين منهم كان يؤرقه إلى ما فوق الاحتمال والطاقة .

وأن سخرية السفهاء والمعرضين قد ملأت قلبه ضيقاً وكدراً .

كما كانت له رغبات طال شوقه إلى رؤيتها ماثلة على أرض الواقع .

وفى كل هذه المواقف كما فى غيرها فإنه صلوات الله وسلامه عليه لم يعلن ولم يفصح ، ولولا نزول الوحى كاشفاً عما فى صدره ما علم به بشر ولا ملك ، ومما لاشك فيه فإن ذلك لم يكن أمراً يسيراً ، وهو بما فرضه عليه من كبت لانفعالاته الخاصة

قد حمله عبئاً ثقيلاً ، فضبط المشاعر على هذا النحو ليس من شيم البشر ولا من سنن الرسل بل إن الملائكة لم تستطع عليه صبرا ، ولعل ذلك أن يفسر بعض المواقف التى خرج فيها الأمر من يده صلوات الله وسلامه عليه ، فكشف عما يجيش فى صدره وأعلن عن وجهة نظره ، ولأن ذلك جاء على خلاف القاعدة ، فقد عنى القرآن الكريم بإحصاء هذه المواقف والاهتمام بتسجيلها ، ومن ثم فلا مفر من دراستها .

الموقف الأول :

أعز فتى فى قريش وأشدهم شكيمة كان حمزة بن عبدالمطلب ، وهو عم رسول الله ﷺ ، كان قريباً منه فى السن وقريباً إلى قلبه ، إذ جمع بينهما ذلك التوافق النفسى بين الأخوة والأتراب ، ولحمزة مواقف مشهودة ، بدأها بقصة إسلامه عندما عاد من رحلة صيد - وهو بعد على دين آبائه - وبلغه أن أبا جهل نال من رسول الله وسبه وآذاه ، فدخل حمزة الكعبة مغضباً فضرب رأس أبى جهل بالقوس فشجه شجة منكرة وقال : أتشتمه وأنا على دينه فرد على ذلك إن استطعت .

وعن ذلك يقول ابن هشام فى كتاب السيرة (لما أسلم حمزة عرفت قريش أن رسول الله ﷺ قد عز وامتنع) .

ويوم بدر خرج ثلاثة نفر من أشراف قريش وسادتها هم عتبة

ابن ربيعـة وأخوه شيبـة وابنه الوليد بن عتبـة ودعوا المسلمين إلى المبـارزة ، فخـرج لهم حمـزة وعلى بن أبى طالب وعـبيـدة بن الحارث ، فقتل حمزة عتبة الأب ثم شارك فى قتل الوليد الابن ، لذا فيـوم أحد كانت عين هند بـنت عتبـة على حمزة حـتى قتل فأسرعت إليه فمثلت به .

وغبـار المعركة لم ينقـشع بعد ،خرج رسـول الله ﷺ يلتمس حمـزة فوجـده قد بُـقِر بطنه عن كـبده ومُـثِّل به فـانتُزِع أنـفه وأذناه[1]

اعتـصر الألم قلب رسول الله ﷺ ومـلأته الأحزان ، لا لأن حمزة أسد الله وأسد رسوله طريح الأرض قـد فارقته الحياة ، بل للتشويه الحاقـد لجسده الطاهر ، وعبر صلوات الله وسـلامه علـيه عن مشاعـره فقال : لن أصاب بمثلك أبداً ، ما وقفت مـوقفاً قط أغيظ لى من هذا [2] .

وثارت غريزة الثأر فى نفس رسول الله ، وترددت فى صدره صرخات الانتـقام فقال (لئن أظهرنى اللـه على قريش فى موطن من المواطن لأمثلن بثلاثين رجلاً منهم) .

وهنـا ، فـإن مـا صـدر عنه صلوات الله وسلامه عليه كان رد

(١) كتاب السيرة لابن هشام – الجزء الثانى – صفحة ٩٥
(٢) كتاب السيرة لابن هشام – الجزء الثانى – صفحة ٩٦

الفعل التلقائى لموقف عصيب ، ساهمت وشائج القربى والخلة فى شحنه بالشدة والعنف ، ومثل هذه الانفعالات وإن كان من حق الرسول معايشتها بحسبانه بشر مثلنا ، إلا أنه ليس له الإعلان عنها أو نشرها ، لكنه أمام نذالة المشركين وخستهم لم يتمالك نفسه ، فقضى بمبدأ فى القصاص يتعارض مع قوله تعالى فى اللوح المحفوظ **«يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى. .»** [1] ، وكذلك **«وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص. .»** [2] .

ولأن تقرير أحكام شريعة الله - بصفة عامة - لا يتم من خلال فورات الغضب والانفعال ، ولا يصاغ تحت وطأة وضغط الأحزان ، وأنه بالنسبة لمحمد عليه الصلاة والسلام بصفة خاصة يجب أن يكون عن أمر من ربه ، لذا فإن الوحى لم يمهل رسول الله إلا بقدر ما أدى الصلاة على قتلى أحد ثم نزل قوله تعالى **«وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين»** [3] . . فعدل صلوات الله وسلامه عليه عن قراره وعفا وصبر ونهى عن المثلة. [4]

---

(١) سورة البقرة - آية ١٧٨

(٢) سورة المائدة - آية ٤٥

(٣) سورة النحل - آية ١٢٦

(٤) كتاب السيرة لابن هشام - الجزء الثانى - صفحة ٩٦

الموقف الثانى :

اختلف أهل التأويل فى سبب نزول قوله تعالى **«يا أيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك تبتغى مرضاة أزواجك . .»** (١)

قال بعضهم : إنه كانت لرسول الله ﷺ جارية فغشيها فبصرت به إحدى زوجاته فطلب منها أن تكتم عليه وحلف لها ألا يقرب جاريته . . وقال آخرون : إنه كان يمكث عند زوجته زينب فيشرب عندها عسلاً فتواطأت عائشة وحفصة ليصرفاه عن ذلك ونجح تدبيرهما فأقسم رسول الله ﷺ ألا يعود لشرب العسل . لكن الطبرى لا يعول كثيراً على هذه الروايات ، ويقول فى تفسيره : والصواب من القول فى ذلك أن يقال : كان الذى حرمه النبى ﷺ على نفسه شيئاً كان الله قد أحله له ، وجائز أن يكون ذلك كان جاريته ، وجائز أن يكون كان شراباً من الأشربة وجائز أن يكون كان غير ذلك ، غير أنه أى ذلك كان فإنه كان تحريم شىء كان له حلالاً . (٢)

وسواء اعتمدنا على ما طرحه المحدثون ، أو أخذنا بما استخلصه الطبرى يكون الرسول صلوات الله وسلامه عليه قد ارتأى لملابسات خاصة به تحريم بعض ما أحله الله .

---

(١) سورة التحريم - آية ١

(٢) تفسير الطبرى . الجزء الثامن والعشرون - صفحة ١٥٨

ولأن التحـريم هنا لم يكن عن أمر من الله ، بل عن اجتـهاد شخـصى استقل الرسـول بتقدير مبـرراته ، لذا فسرعـان ما نزل الوحى بقوله تعالى **«يا أيها النبى لم تحرم مـا أحل الله لك تبتغى مرضاة أزواجك»** ليذكـر الرسول بضـرورة استلهـام السمـاء قبل إصدار حكمـه أو إبداء رأيه ، وأنه ما كـان له أن يقضى بتـحريم الحلال - حتى فيما يختص به وحده - دون بيان من الله .

الموقف الأخير :

فيمـا نحن بصدده سجله القرآن الكريم فى قـوله تعالى **«عبس وتولى أن جاءه الأعمى . .»** وذلك عندما أعـرض صلوات اللـه وسلامه عليه عن ابن أم مكتـوم لما دخل عليه وهو يحاول استمالة بعض ذوى النفوذ من كفـار قريش وتأليف قلوبهم ، وبالرغم من أن الأمر لم يشتمل إلا على قدر من عدم الارتياح بدا على ملامح الرسول فإن القرآن الكريم لم يشأ أن يدع الموقف يمر دون تنبيه إلى الوضع الخاص لمحـمد عليه الصـلاة والسلام ، فحـيثمـا ظهرت مشاعره وبدت سافرة أمام الآخـرين ولو فى قدر يسير من انقباض عضلات الوجه عـبوساً أو انبساطها ابتـساماً ، فإن ذلك يجب أن يكون فى إطار القاعدة العامة فلا يتم إلا بأمر من الله ، وفى بيان ذلك نزل قوله تعالى **«عبس وتولى أن جاءه الأعـمى وما يدريك لعله يزكى . أو يذكر فتنفعه الذكرى»** .

تلك هى أهم المواقف التى جاءت استثناء على القاعدة العامة، واهتمام القرآن الكريم بحصرها ومعالجتها لم يؤكد القاعدة العامة فحسب ، بل وأكد أن التزامه صلوات الله وسلامه عليه بالتوجيه الإلهى ، لم يقتصر على المواقف القرآنية وحدها بل شمل كل ما صدر عنه سواء وهو يتعامل كرسول من عند الله ، أو هو ينطلق بين البشر ويمارس حياته كواحد منهم ، فحيثما أدى اجتهاده البشرى إلى ما لا يطابق حكم الله سارع الوحى بالنزول ، لا لمعاتبة الرسول ومحاسبته - كما مال معظم المفسرين - بل لتذكيره بالقاعدة العامة ورده إلى الالتزام بها حتى يكون المرجع والأساس فى أقواله وأفعاله صغيرها وكبيرها ، هو أمر الله لا إرادة البشر .

بما سلف نكون قد بلغنا خاتمة المطاف فى تلك الرحلة التى استهدفنا بها جمع كل ما سجله القرآن الكريم أو أشار إليه من أقوال لمحمد عليه الصلاة والسلام ، وفيها أحطنا بالقدر المحدود الذى ورد على لسانه من خلال الفعل الماضى «قال» أو المضارع «يقول» وبالفيض العظيم الذى قاله عن أمر ربه من خلال الفعل «قل» كما حددنا القاعدة العامة التى تحكم أقواله وأفعاله والاستثناءات التى وردت عليها ، وخلال ذلك لم نطالع ما يعتبر التماساً لدليل على وجود الغيب من مثل : **«رب أرنى كيف تحيى الموتى» أو «رب أرنى أنظر إليك»**.

كما لم نصادف ما يستشف منه أنه محاولة للنفاذ من بين

أستاره ، من مثل : **«أنّى يحيى هذه الله بعد موتها»** أو **«اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء»** .

وفضلا عن ذلك فإن أقواله صلوات الله وسلامه عليه لم تشتمل على طلب شخصى أو رغبة ذاتية أو شكوى ظاهرة أو خفية ، من مثل :

لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين

إبراهيم عليه السلام

رب نجنى من القوم الظالمين موسى عليه السلام

من أنصارى إلى الله عيسى عليه السلام

رب السجن أحب إلىّ مما يدعوننى إليه

يوسف عليه السلام

إن ابنى من أهلى وإن وعدك الحق نوح عليه السلام

رب هب لى من لدنك ذرية طيبة زكريا عليه السلام

رب اغفر لى وهب لى ملكاً لا ينبغى لأحد من بعدى

سليمان عليه السلام

هذا الإعراض من جانبه صلوات الله وسلامه عليه عن الطلب والالتماس أو التبرم والشكوى الذى لاحظناه فيما سجله القرآن

الكريم له ، نلاحظه بذات القدر فيما روى عنه من أحاديث ، حتى إن ذلك الالتزام يمكن اعتباره مقياساً لمراجعة الأحاديث المحدودة التى خرجت عن هذا الإطار والتى من أبرزها الحديث المشهور : اللهم إليك أشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس . أنت أرحم الراحمين . أنت رب المستضعفين وأنت ربى . إلى من تكلنى ، إلى بعيد يتجهمنى أم إلى عدو ملكته أمرى .

وطبقاً للمقياس الذى أوضحناه فإن علو نبرة الشكوى فى ألفاظ هذا الحديث ووضوح القلق مما آلت إليه الأمور تكفى للحكم بضعفه ، وقد ثبت أنه كذلك (١) .

فمحمد ﷺ ، وإن كان رسولاً كغيره من الرسل ، إلا أن المراجعة الشاملة لأقواله وأفعاله ومقارنتها بأقوال وأفعال غيره من الرسل قد أكدت أن له نهجاً يختلف عن نهجهم ، فهو وإن كان يتفق معهم فى وسائل وأساليب التفكير ، ويتماثل وإياهم فى توالد وتطور الأحاسيس ، إلا أنهم ينفعلون ويتأثرون ويقولون ، أما هو فإن انفعل أو تأثر فلا يقول . وإطلاق حرية القول لرسل

---

(١) راجع فى بيان ضعف هذا الحديث تعليق الأستاذ المحدث العلامة الشيخ محمد ناصر الدين الألبانى بهامش الصفحة رقم ١٣٢ من كتاب «فقه السيرة» للشيخ محمد الغزالى .

الله أتاح لهم الخلاص من كل ما حاك فى صدورهم أو تبادر إلى أذهانهم فطلبوا من ربهم وتوسلوا والتمسوا ، أما محمد ﷺ فإن استظلاله بالعناية الإلهية قد ألزمه كتمان مشاعره وكبح جماح خواطره ، وبالتالى لم يرصد له القرآن الكريم طلباً خاصاً أو رغبة ذاتية كما لم يسجل له محاولة لاختراق حجب الغيب كالتى سجلها لهم .

لكن هذا الذى انتهينا إليه ، وإن أفاد أن محمداً ﷺ لم يقل مثل غيره من الرسل ولم يسع مثل سعيهم ، إلا أنه لا ينفى أن يكون قد خطر بباله من الآراء والأفكار ما خطر ببالهم ، كما لا يعنى أنه ﷺ كان بمنجاة من التعرض لمثل ما تعرضوا له ودفعهم إلى طرح تساؤلاتهم عن الغيب .

فهو بشر مثلهم يسمع ويرى ، ويتحقق له بالحواس ما لا يتحقق له بدونها ، وإذا كانت أقواله وأفعاله لا تتم إلا فى حدود التوجيه الإلهى فإن تصوراته وأفكاره لا تتشكل إلا فى حدود قدراته التى يتساوى فيها مع الآخرين ، وهو ﷺ يخضع للقاعدة العامة التى أوضحها قوله تعالى **«والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون»** .

والآية الكريمة التى اعتمدنا عليها لبيان طبيعة رسل الله وهى قوله تعالى **«قل إنما أنا بشر مثلكم..»** نزلت فى شأنه ﷺ .

فبشريته لا تختلف عن بشرية ذلك الذى مر على قرية فتساءل :

« أنّى يحيى هذه الله بعد موتها » .

ولا عن بشرية إبراهيم التى غلبت فقال :

« رب أرنى كيف تحيى الموتى » .

ولا عن بشرية موسى التى سادت وتحكمت فطلب :

« رب أرنى أنظر إليك » .

لكنهم يملكون حق « القول » ولهم حرية إبداء الرأى ، أما محمد عليه الصلاة والسلام فإن أدبه مع ربه ، وتقديره لمقامه قاب قوسين أو أدنى قد حد من حريته فى الكشف عن انفعالاته الشخصية أو فى عرض تساؤلاته الذاتية ، وعلى سبيل المثال فلو أنه مر بالحوت الذى مر به إبراهيم عليه السلام ورأى دواب البحر تنهش جسده ، وسباع البر تمزق أطرافه وطيور السماء تتخطف أجزاءه ، وانتهت الحيرة التى بدأت بالتعجب من « كيف يُجمع هذا من بطون هؤلاء » إلى التساؤل عن « كيفية إحياء الموتى » لما سأل محمد عليه الصلاة والسلام ربه ما سأله إبراهيم عليه السلام .

لكن هذا السلوك من جانبه ﷺ لا يتوافق مع ما سبق أن أوضحناه من أن سعى رسل الله إلى التماس دليل على الغيب كان سعياً مشكوراً وجهداً مطلوباً .

وإذا كان محمد عليه الصلاة والسلام مثلهم ، تطوف به مثل الأفكار التى تطوف بهم ، وتراوده ذات التساؤلات التى تراودهم، غير أنه لا يقول كما قالوا ، وبالتالى فإنه لم يسع كما سعوا ، فكيف اكتمل إيمانه بوجود عالم الغيب ؟

لإجابة هذا السؤال لابد من استعراض مركز لبعض ما سبق أن فصلناه من قبل وهو :

* إن اقتناع البشر بما لا تمسه حواسهم يتساوى مع النقش على الماء سرعان ما ينمحى أثره ، والتحدى الحقيقى للإنسان هنا يتمثل - بصفة خاصة - فيما فرض عليه من إيمان بوجود عالم الغيب . وبالتالى بات الإيمان به مشكلة إنسانية عامة ، يتوقف أمامها متسائلاً الإنسان العادى أو الرسول من عند الله .

* فيما يختص بعامة البشر فقد بينا أن رحمة الله قد يسرت لهم الأمر ، إذ لم يفرض الله عليهم إيماناً كاملاً بالغيب ، كذلك الذى اشترطه فى الإقرار بوجوده ووحدانيته ، واكتفى منهم بتجنب الإصرار على إنكار الغيب وبمثقال حبة من خردل من الإيمان .

* بالنسبة لرسل الله ، فإن مكانتهم عند الله ، بالإضافة إلى حريتهم فى «القول» قد حلت لهم المشكلة ، وقد رصدنا لأصحاب الرسالات الكبرى منهم محاولات كشفت عن عدم اقتناعهم بإيمان منقوص ، إذ سعى كل منهم إلى التماس دليل يرفع إيمانه بالغيب إلى درجة اليقين .

* بالنسبة لمحمد عليه الصلاة والسلام فقد انتهينا - بعد استعراض أقواله - إلى أنه كبشر فإن احتمال أن يراوده التساؤل عن الغيب قائم ووارد ، لكنه كرسول بلغ من الرفعة ما لم يبلغه أحد . فإن احتمال أن يتساءل عن الغيب غير قائم وغير وارد .

وفى ضوء ما سلف نطرح ما يلى :

هل يجوز أن تحل مشكلة الإيمان بالغيب بالنسبة للجميع بشراً ورسلاً ثم تستعصى على أشرف الخلق وتبقى بلا حل ؟

هل من المقبول أن يقف إيمان محمد عليه الصلاة والسلام بالغيب عند الحد المسموح به لعامة البشر ، فيبشر بجنة ويخوف من نار وهو لم ير ولم يشاهد ؟

هل من المستساغ أن يُترك محمد المختص بالعناية الإلهية والإرشاد الربانى لتداعيات الأحداث تفجر فى صدره التساؤل عن الغيب ، فيطرحه مع ما فى ذلك من خروج على الإطار العام الذى يحدد أقواله وأفعاله أو يكتمه ليوقظ فى صدره بين الحين

والحين وساوس الشك وليثير مع سبحات الفكر مكامن القلق ؟

إن محمداً ﷺ بشر ، ثبت من قـوله «ليس الخبر كالمعاينة» أن بلوغ اليقين لا يتيسر كقاعدة إلا بالدليل الحسى رؤية أو سماعاً .

وهو رسول يحتاج إلى إيمان كـامل بالغيب ليكون بلاغه للناس على ثقة ويقين .

لكنه - كـما سلف وبينا - لا يملك أن يقـول «رب أرنى . . » فبـعد تشـريفه بالتفـويض الإلهى «قل» ليس له أن يتـثبت أو أن يتساءل أو يشك .

وإذا كان ما تحتـاجه بشرية محمد يتعـارض مع رفعة نبوته . . فكيف يتسنى التوفيق بين حاجته - كبشر - للمعاينة وبين ما ثبت من سيرته - كنبى - أن قربه من ربه يمنعه من طلبها ؟

واضح أننا لم نستدع ذلك السؤال ، وأنه هو الذى طرح نفسه وأن تجنب الإجـابة عليه سـيجعلنا كـالنعام الذى يـدس رأسه فى الرمال ليتخلص مما يريبه ، أما معالجته ، فإنها وإن دفعت بنا إلى الدوران فى حلقة مفـرغة ، إلا أنها ستؤكـد فى النهاية أن المخرج الوحيد هو أن يتاح لمحمـد عليه الصلاة والسلام رؤية الدليل على عالم الغيب دون طلب منه ، بل وقبل أن يثور فى صدره التساؤل أو الشك .

هكذا تحـدد السـبيل وفـرض الحل نفســه ، لم يكن هناك بد

احتراماً لبشرية محمد ، وحفاظاً على قدسية ونقاء نبوته من أن يسرى ويعرج به ، لا لأن يرى مشهداً من مشاهد عالم الغيب كغيره من الرسل ، إنما ليرى ذلك العالم جميعه ، كل الحجب تزال وكل الأستار ترفع حتى تطلع هذه النفس الشريفة فتسمع وترى فيتحقق لها بالتالى أعلى درجات اليقين الذى لم تسع إليه بل جاءها هو يسعى .

وقبل المضى فى بسط هذا الرأى نجيب أولا على التساؤلات الآتية :

لماذا البحث عن حكمة الإسراء والمعراج ؟

وفيما كان كل ذلك العناء الذى خضناه لتحديد الأسباب التى فرضت القيام به ؟

لقد اشتمل الإسراء والمعراج على رحلة خارقة للعادة ، فى مرحلتها الأولى انتقل الرسول على الأرض من مكة الى بيت المقدس حيث جُمع له الأنبياء وصلى بهم ، ومن هناك بدأت المرحلة الثانية إلى الملأ الأعلى ثم عاد إلى مكة وذلك كله فى جزء من الليل .

فالرحلة فى مجملها وتفصيلاتها لا تخضع للمقاييس البشرية، ورغم غرابتها وخروجها على المألوف فلا يمكن إدراجها فى باب

«المعجزات» التى يؤيد الله بها رسله لأنها لم تقع على أعين الناس ولم يتم التحدى بها ، ومن ثم فهناك أسباب دعت إلى هذه الرحلة وفرضت القيام بها ، والمؤكد أن تلك الأسباب كانت بالغة الخطورة والأهمية لأن الوسيلة إليها كانت شاذة وغير عادية ، ويلفت النظر أن هذه الرحلة الخارقة تكاد تنفصل تماماً عن أحداث الدعوة ، وآيات القرآن الكريم شديدة الوضوح فى اختصاصها بالرسول واقتصار أثرها عليه ، فالإسراء تم (لنريه - هو - من آياتنا) والمعراج (ليرى - هو - من آيات ربه الكبرى) .

وفضلا عن ذلك فالعقيدة الإسلامية قد التزمت منذ بدايتها بالنهج الموضوعى ولم تعتمد فى كافة خطواتها إلا على الدليل العقلى إلى أن وقع الإسراء والمعراج فجاء كاستثناء حاد على هذا الخط الأساسى بتناقضه مع ما سبقه أو تلاه من أحداث .

كذلك فقد صادف وقوع الإسراء والمعراج مرحلة كانت الدعوة تعانى فيها من مصاعب جمة ، ووقت كان الرسول يعمل جاهداً لتوسيع نطاقها فجاء الإسراء والمعراج ليزيد من المتاعب التى تواجهها وليساهم فى إحكام الحصار حولها [1] .

وعندما يكون الحدث خارقاً للعادة لكنه ظاهرياً غير ذى صلة بالدعوة ، وعندما يبدو - رغم أهميته وخطورته الذاتية -

---

(١) راجع فى تفاصيل ذلك كله كتابنا (حقائق الإسراء والمعراج) .

متناقضاً مع باقى أحداثهـا ، وعندما يكون أثره المباشر هو خسارة الدعوة لبعض أنصارها .

فـالسؤال الذى يجب أن يثـيـره الحدث هو : لماذا ؟ ومـا هى الأسباب التى حتمت القيام به ؟ . . ومـا هى النتائج التى حققها ولـم تكن لتتحقق بدونه ؟

فذلك من شأنه الكشـف عن أهميته وتحديد ارتبـاطه بغيره من الأحداث وبيان أثره فى بلوغ الدعوة هدفها النهائى .

وعلى ما بينا فـى كتابنا (حـقائق الإسراء والمعـراج) فإن الفكر الإسلامى فى مرحلـته الأولى والثانية لـم يشغـله إلا التساؤل عن (كيفية) الإسراء والمعراج ، أكان بالروح أم بالجسد ، رؤيا فى منام أم حقيقـة وفى اليقظة ، وإذا كان علماء المرحلة الثالـثة قد ساروا على نهج القدمـاء ، إلا أن فكرة وجود سبب أو أسبـاب حتمت القيام بهذه الرحلة قد راودت عدداً غير قليل منهم فاجتهد بعضهم وطرحوا تصوراتهم ، وتبعهم الباقـون حتى أصبحنا بصدد إجماع على طائفـة من الآراء ما أن يلـوح التسـاؤل عن حكمة الإسـراء والمعراج حتى تطرح كلها أو بعضها ، ونستعرضها فيما يلى :

أشهـر هذه الآراء وأكثرها شـيوعاً يربط بين الإسـراء والمعراج وبين وفاة أبى طالب والسيدة خديجة ، فيقرر أن الإسراء والمعراج قد استهـدف تعزية الرسول وتخفيف أحزانـه لوفاة زوجه وعلاج

إحساسه بالضياع لافتقاده حماية عمه .

بعض الباحثين يضيف إلى ما سلف أن آثار عنت المشركين وأذاهم وصدودهم وإعراضهم قد أصابت الرسول بجروح عميقة فكان الإسراء والمعراج ليس فقط رعاية لمشاعره بعد مصابه فى عمه وزوجه ، بل ولتطبيب جراحه وتخليصه من آلامه .

من الآراء المتداولة أنه بعد عشر سنوات من الجهاد المتصل فى البلاغ عن الله ، فقد احتاج الرسول إلى استراحة يجدد فيها قواه ويستعيد نشاطه ، فتم الإسراء والمعراج للترفيه عن الرسول وتسليته بكل ما فى الرحلة من تجديد للنفس واسترجاع للقوى وبكل ما فى النزهة من دواعى الاسترواح والترويح وإزالة الهموم.

من الآراء التى تلقى قبولاً لدى الباحثين أن الرحلة كانت لتكريم الرسول والاحتفال به بعد أن جفته الدنيا وضاقت به ، وأن الإسراء كان للاحتفاء به فى الأرض أما المعراج فكان للترحيب به فى السماء .

تلك هى الآراء التى استقرت فى الفكر الإسلامى الحديث كأسباب فرضت الإسراء بمحمد عليه الصلاة والسلام والعروج به ، وفى عرضنا لها لم نوجز بما يخل بأى منها بل أوردناها بحذافيرها بعد تخليصها ، سواء من المحسنات البلاغية والأساليب الإنشائية

التى عرضت من خلالهـا ، أو التهويل والمبالغـة التى أحاطت بها ونفخت فيها. [1]

وكان رأينا - منذ عشرين عـاما - ولا يزال حتى اليوم أن هذه الآراء لم تمحص بما فيه الكفـاية ، وأن العقل فيها قـد أسلم قياده للعواطف فكانت النتائج غير رشيدة وغير متزنة .

فالقول بأنّ وفـاة السيدة خديجة قد أثرت على كـفاءة الرسول وقدرته ، وأنّ مـوت عمه قـد فتّ فى عضده ونال من عـزيمته ، وأن إعادة الحـال إلى ما كـانت عليه هى الـتى استدعـت الإسراء والمعراج . . هذا القـول ينسب الضعف والتهـافت إلى رسول هو القمة فى الثبات والصبر ، ويتهمه بالعجز عن احتمال ما يبتلى به عامة الناس وخاصتهم ، مؤمنهـم وكافرهم فيجزعون له حين من الوقت ثم يبرءون منه دون ما حاجة إلى مثل هذا الحدث الخارق.

أما القول بأن متاعب تبليغ الدعـوة قد ثقلت على محمد عليه الصـلاة والسلام وأرهقـته ، وأن عنت الكافـرين والمعانديـن قد أسخن قلبـه ، وأن الإسراء والمعـراج كان علاجـاً لتبـعات ذلك الضيق والعـدوان . . فهو كـسابقه يدور فـى فلك الإصرار على نسبة العجز والتراخى إلى أكثر البشر قوة وقدرة واحتمالا .

---

(١) راجع تفاصيل هذه الآراء فى كتابنا (حقائق الإسراء والمعراج) من صفحة ١١٩ - ١٦٠

وبالنسبة للادعاء بأن الرحلة تمت للترفيه عن الرسول وتسليته ، فالمرجح - مع افتراض حسن الظن - أن مروجى هذا الرأى قد ساءهم إصرار غالبية الكتّاب على الربط بين أحزان الرسول ومتاعبه النفسية وبين الإسراء والمعراج ، خاصة وأن بعضاً منهم -سعياً لتأكيد هذه الرابطة- قد بالغ فى إضفاء الأسى والكآبة على حياة الرسول بعد وفاة عمه وزوجه ، فدفعهم ذلك من باب التجديد إلى تقديم تفسير أكثر بهجة وإشراقاً ، فقرروا أن الرحلة الخارقة تمت للترفيه والتسلية .

يبقى آخر هذه الآراء وأقلها انتشاراً ، وهو أن الرحلة كانت لتكريم الرسول والاحتفاء به ، وطبقا للمقاييس العقلية فقد يبدو هذا الرأى أقرب إلى القبول من غيره ، خاصة بالنسبة لرحلة الإسراء التى تحقق فيها نوع من التكريم بجمع الأنبياء لمحمد وصلاته بهم . لكنه لا يحل المشكلة بالنسبة للجانب الأهم من الرحلة ، فاطلاع الرسول على الجنة ونعيم أهلها ، والنار وشقاء أصحابها ما له بالتكريم صلة فضلاً عن أن التكريم يرتبط عادة بالعلانية ، والرحلة كلها تمت فى غفلة من العيون وستر عن الآذان .

بعد هذه النظرة العاجلة لكل من تلك الآراء على حدة ، فإنه يلزم التنويه إلى أنها كلها تتعارض مع الثابت والصحيح من سنة رسول الله ، فهى تصوره ضائعاً لفقد عمه ، منهاراً لوفاة زوجه،

عاجزاً عن احتمال عنت المشركين ومضايقاتهم . والغريب أن هذه الاتجاهات الخاطئة لم تتجسد على هذا النحو إلا لتبرير رحلة الإسراء والمعراج ، واللافت للنظر أنه رغم مجافاتها للمنطق وتناقضها مع أبسط درجات التفكير فإنها جسمت على صدر الفكر الإسلامي دون أن تحظى بأى قدر من الدراسة أو التمحيص (١) .

إن الأقرب إلى التصور ، والأكثر اتفاقاً وحسن التدبير هو أن ما اشتملت عليه رحلة الإسراء والمعراج من غرابة ، وما حفلت به من خرق للعادة إنما استهدف غاية أكبر من التسلية والترفيه ، وأهم وأخطر من مسح الآلام أو تخفيف الأحزان ، والنتائج الفعلية للرحلة تؤكد ذلك ، فمتاعب الرسول بعدها تزايدت ، والحرج الذى يواجهه تضاعف ، ويكفى أن كفار قريش كانوا أحرص الناس على إذاعة خبر الإسراء بل إن محمداً عليه الصلاة والسلام - عندما أعرض عن تحذير ابنة عمه (أم هانىء) وأصر على الخروج إلى الكعبة لإعلان الخبر - كان يرى أن ما سيلقيه على أسماع القرشيين غير قابل للتصديق وأنه لن يجر عليه إلا المتاعب .

(١) طوال السنوات العشرين الماضية - التى أعقبت الإنتهاء من تحرير مسودات هذا الكتاب - وحتى العام الهجرى الحالى (١٤١٥) لم يكن لدى الباحثين والمتحدثين غير تلك الآراء المستهلكة يقرعون بها أسماع المسلمين فى ذكرى الإسراء والمعراج كل عام ، يرددونها فى إصرار ، ويفخر واعتزاز من يكتشفها لأول مرة .

لقد غفل الذين روجوا لتلك الآراء أنهم ينفون عن محمد عليه الصلاة والسلام صفة (الأسوة الحسنة) التى اختصه الله بها من دون الخلق جميعا ، فاذا تضعضعت نفسه لفقد عمه ، وإن تزلزل كيانه لوفاة زوجه ، ولو تأثر لصدود قومه وأذاهم .. ثم استعصى علاج ذلك إلا بالإسراء والمعراج ، فهو إذن ليس أسوة تتبع ولا قدوة تحتذى .

لقد كان محمد سيد المرسلين لأنه كان سيد العارفين بتكاليف الرسالة وإنها ليست بعاصم من الابتلاء فى النفس والأهل ، بل هى مدعاة للمزيد ، ولقد هجر منذ نزل عليه جبريل فى الغار حياة السكينة والسلامة والدعة ، وخاض امتثالاً لأمر ربه جهاداً متواصلاً لتبديل قلوب قست وتحجرت ولتغيير نفوس فسدت والتوت ، وعلم أنه كالدعاة قبله سيضحى هدفاً للسفهاء ومضغة للمستهزئين ، ووطن نفسه على أن يثبت ويثابر ، ويصبر ويصابر ليضرب المثل لأتباعه باعتبارهم حملة دعوة ثقيلة ستجابه إلى يوم الدين مكر الحاقدين والكارهين ، وعداء المتعصبين والمستكبرين .

لم يكن صلوات الله وسلامه عليه من الحالمين بأن توفر له النبوة فراشاً من حرير وبيتاً من زخرف وحفظة وحجاباً يقسرون القلوب على الالتفاف حوله والإيمان به ، ولو أصابه من المحن أضعاف أضعاف ما أصابه ما تململ ولا تداعى ولا اهتز ، ونحن لا ننفى أنه صلوات الله وسلامه عليه كان يحزن لفراق أحبائه

ويتأثر لرحيل المقربين إليه . ولا ننكر أن عنت المشركين وأذاهم كان يثقل عليه ، لكن ما نقول به هو أن الآثار السلبية لذلك كله لم تصل إلى حدّ أن يصبح الإسراء والمعراج هو العلاج الوحيد الذى بدونه تبقى - تلك الآثار - كمعوقات تحول بين الرسول وبين أداء مهامه النبوية على الوجه الأكمل ، وبعبارة أخرى ، فإن الإسراء والمعراج لم يكن له أدنى صلة بذلك الابتلاء الذى أصاب الرسول فى نفسه أو فى أهله واحتمله صابراً عليه راضياً به .

وعندما نقرّ بضرورة المواءمة بين العلة والدواء ، والتوافق بين النتيجة والأسباب فسيتأكد لنا أن المبررات التى طُرحت تعليلاً للإسراء والمعراج جاءت أبعد ما يكون عن الصواب ، ولا نعتقد أن هناك عاقلاً واحداً يمكن أن يسلم بأن الهدف من الإسراء والمعراج كان :

تعزية الرسول فى وفاة السيدة خديجة وتخفيف أحزان فراقها له ، أو طمأنته وتثبيته بعد افتقاده لدعم وحماية عمه ، أو تخليصه من آثار عنت المشركين واجتراء سفهائهم عليه ، أو تسليته والترفيه عنه .

فما هى الصلة بين تلك الأهداف وبين إتاحة الفرصة لرسول الله ﷺ ليطلع على الجنة ونعيم أهلها والنار وشقاء أصحابها ، فضلاً عن أن بلوغ ما سلف - على فرض احتياج الرسول إليه -

لم يكن ليستدعى حدثاً كالإسراء والمعراج فيه من دواعى الإثارة والاستفزاز ما قد يؤدى إلى نتائج تتعارض بالقطع مع المستهدف والمطلوب .

ويبقى بعد ما سلف فيما يختص بتلك الآراء أن نشير إلى أمور منها :

- إنه يتعين التفرقة بينها وبين ما قدر لها من قبول وانتشار ، فالآراء فى ذاتها جاءت مجانبة للصواب شكلاً وموضوعاً ، أما الترحيب الحار الذى حظيت به فقد كان تعبيراً عن ارتياح عام لسد فجوة واسعة فى الفكر الإسلامى كان من المحتم أن يثير بقاؤها عديداً من علامات الاستفهام والتعجب ، ذلك أن الاقتصار فى دراسة حدث الإسراء والمعراج على كيفيته ووقائعه دون بيان الحكمة منه هو بمثابة إفراغ له من محتواه بما يجعله أقرب إلى قصص ألف ليلة وليلة التى تستهدف الإثارة والتشويق والإبهار .

- تعزيزاً لوجهة نظرهم ، فقد انحاز معظم الباحثين عند عرض الآراء سالفة البيان إلى المغالاة فى تأكيد اعتماد الرسول على حماية عمه كى يضاعفوا من إحساسه بالضياع والهوان بعد وفاته، كما عمدوا إلى المبالغة فى بيان ارتكانه لدعم وتأييد زوجه كأساس يقيمون عليه ادعاءهم بانهياره بعد رحيلها . . وفى هذا الصدد فلقد أدى الحماس غير المنضبط والاندفاع فى الانتصار

للرأى غير الواعى إلى عديد من الافتراءات والمغالطات التى ألحقت بسيرة أكمل الخلق وأشرفهم إساءات بالغة .(١)

بانتهاء ما سلف نكون قد فرغنا من هذا الاستطراد الذى تطرقنا إليه وتدارسنا فيه ما استقر عليه الباحثون كأسباب فرضت الإسراء بمحمد ﷺ والعروج به ، وإذ أثبتنا ضعفها وتهافتها فإننا نعود لاستكمال ما كنا قد توقفنا عنده وهو :

- إن ارتفاع إيمان رسل الله بوجود الغيب إلى درجة عين اليقين لو لم يكن مشروعاً لما سعوا إليه ، ولو لم يكن لازماً لما استجاب الله لهم .

- إن محمداً ﷺ ليس كعامة البشر ولا دون غيره من الرسل، وبلوغ إيمانه بوجود الغيب إلى حد عين اليقين كان هاماً لبشريته وضرورياً لشرف نبوته .

- فى حدود قدرات البشر الحسية فإن المعاينة دون غيرها هى التى تحقق ذلك القدر من اليقين .

- إن محمداً ﷺ بعدما شرف بالتفويض الإلهى «قل» لم يكن له أن يقدم على ما أقدم عليه غيره من الرسل من سعى للنفاذ من خلال أستار الغيب إذ لا يعقل أن ترد آية بمعنى «قل رب أرنى كيف تحيى الموتى» .

---

(١) راجع فى بيان ذلك كتابنا (حقائق الإسراء والمعراج) من صفحة ١٣٢ - ١٦٠

وعلى ذلك فإن دعوة محمد للإسراء والمعراج كانت أمراً مقدراً وحتمياً باعتبارها الوسيلة العملية الوحيدة للارتفاع بإيمانه بوجود الغيب إلى درجة عين اليقين .

وهذا الذى ندعيه لا يقوم فحسب على ما فصلناه فى هذا الكتاب من مبررات مستساغة عقلاً وشرعاً ، بل إنه يجد سنداً فيما يلى :

* ما صرحت الآيات به من أن الإسراء تم . . لنريه من آياتنا ، والمعراج . . ليرى من آيات ربه ، فالهدف من الرحلة بشقيها كان (الرؤية) التى يتوافر بها الدليل المادى الذى يتلاءم وقدرات البشر الحسية ، وإذا كان رسل الله قد التمسوها وسعوا إليها (رب أرنى) فإنها تتاح لأشرف الخلق دون طلب ويدعى إليها على غير انتظار أو تطلع (ليرى) .

* ما اشتملت عليه الرحلة من وقائع كشفت عن طواف الرسول بأرجاء عالم الغيب كله ، ففى الإسراء تحقق (البعث) بالتقاء محمد بالسابقين من رسل الله الذين نزل الوحى بقصصهم وصفاتهم ، فها هم أمامه بأجسادهم يقبلون عليه ويحتفون به ويؤمهم فيقتدون به ، وفى المعراج انفتحت لمحمد صفحة الحساب والجزاء فاطلع على نماذج من أعمال الدنيا وما تصير إليه فى الآخرة ، فالمجاهدون فى سبيل الله ينعمون فى جنات أكلها

دائم ، كلما حصدوا ثمرها عاد كما كان .

والذين يتثاقلون عن الصلاة ترضخ رءوسهم بالحجارة وخطباء الفتنة فى الدنيا تقرض ألسنتهم وشفاههم .

هكذا تتابعت مشاهد الجزاء والحساب أمام محمد ليسمع ويرى كيما يتحقق له من اليقين ما يتلاءم مع بشريته ويتناسب وعلو درجته ،وما يؤهله للمثول فى حضرة ربه ليتحقق هنالك من درجة قربه الدائمة المتمثلة فى الإنعام الإلهى «قل» .

بذلك تكون رحلة الإسراء والمعراج بمثابة إجابة مسبقة على سؤال لم يكن محمد قد طرحه ولا كان من المنتظر أن يطرحه ، غير أن ورود هذا السؤال على خاطره - بالنسبة له كبشر - كان من الناحية النظرية قائماً ، كما أن احتمال تساؤل الآخرين - ولو فيما بعد - عن أسس إيمانه بوجود الغيب كان وارداً ، فتم الإسراء والمعراج لقطع الطريق على هذا وذاك .

فبالنسبة للسؤال الأول فإن التساؤل عن الغيب الذى ثبت أنه لم يجر على لسان الرسول ولم تتحرك به شفتاه . . فإن احتمال مروره - ولو كتساؤل داخلى - بات بالإسراء والمعراج معدوماً .

وأما بالنسبة لما قد يثيره الآخرون من شغب حول كيفية اكتمال إيمانه صلوات الله وسلامه عليه بالغيب ، فقد أتاح له الإسراء والمعراج اطلاعاً كاملاً على ذلك العالم الذى تحايل رسل الله

لرؤية مشاهد منه ، لذلك فهو ﷺ إن كان (أول المؤمنين) فما ذلك لأنه اولهم خلقاً فحسب ، بل لأنه أعلاهم يقيناً وأثبتهم إيماناً بما أتاحه له الإسراء والمعراج من معاينة بات معها يعلم علم اليقين بل عين اليقين أن . . « **الله هو الحق وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شىء قدير . وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور** »[1] .

وبالإضافة إلى ما سلف فإن ما نقول به :

* يربط الإسراء والمعراج بأسباب تبرز أهميته وتضعه فى موضعه الصحيح داخل إطار الدعوة الإسلامية ، فالهدف منه ليس التعزية أو التسلية أو التأييد بل تقديم الدليل المادى على وجود الغيب ، وهى غاية إن كانت لازمة للبشر عامة ، فإن بلوغ محمد ﷺ لها لم يكن له من سبيل إلا من خلال هذا الحدث الخارق الخطير .

* يزيل التناقض بين الإسراء والمعراج وبين باقى وقائع السيرة، فالرحلة لم تكن مجرد استعراض للقدرة الإلهية ، بل هى وسيلة عملية تتلاءم مع قدرات البشر الحسية ، وعلى ذلك فهى جزء من النهج الموضوعى الذى التزمته العقيدة الإسلامية فى كافة مراحلها وخطواتها .

---

(١) سورة الحج – الآية ٦ ، ٧

* يلغى التساؤل العقيم حول ما إذا كان الإسراء والمعراج بالروح أم بالجسد ،فالدليل المادى الذى استهدفته الرحلة لا يتحقق إلا بعين يقظة ترى وأذن منتبهة تسمع وفؤاد يحفظ ويعى .

* لا يقف بأثر الإسراء والمعراج عند الرسول وحده ، بل يتعداه إلى الإسلام كعقيدة وإلى المسلمين كمخاطبين بها .

فإيمان المسلمين بوجود الغيب - بعد الإسراء والمعراج - لم يعد يستند إلى الإحساس الفطرى وحده ، فمحمد ﷺ - الذى هو بشر مثلنا - قد عاين الغيب كله ونقل لنا ما سمع وما رأى فأصبحنا كمن سمع ورأى . . ومن هنا فلا يجوز للمسلم أن يتشكك فى عقيدة البعث والحساب ، وليس له أن يخوض فى مشاكل الحس وما وراء الطبيعة والعقل وما وراء الطبيعة فقد كفانا الإسراء والمعراج بمحمد عليه الصلاة والسلام مؤنة ذلك كله وقدم لنا الدليل عليه . وهكذا ينعم المسلم دون غيره باكتمال واستقرار إيمانه ،وبتوازن عناصر هذا الإيمان ، وإذا كان الإسلام هو دعوة الله المتجددة إلى آخر الزمان فإن المسلمين هم جنده ودعاته ، وما كان الله ليحملهم أمانة الدعوة لدينه ومسئولية البلاغ عنه إلابعد أن . . أكمل لهم دينهم وأتم عليهم نعمته .

بهذا الدليل الذى أتاحه الإسراء والمعراج وباليقين الذى استتبعه أكدت الدعوة الإسلامية أصالتها ، وبرهنت على جديتها وسجلت

احترامـها للعقل وإعلائهـا لقدر الإنسان بتبنيهـا للنهج الموضوعى الذى يتلاءم وقـدراته ، وبذلك اندفع أتباعـها الأوائل فى مـجال التضـحية والفداء إلى آخـر المدى ، فسارعوا بالهـجرة إلى المدينة متـخلين عن أموالهم وأهليـهم وأوطانهم ليحـققـوا للدعوة أولى خطواتها على طريق العمومية والعالمية ، وليعلنوا أن موطنها هو : قلوب الذين يعقلون ، ومستقرها فى عقول الذين يفقهون .

هكذا كـان المسلمون . . وهكذا يجب أن يكونـوا ، لا تجرى خطواتهم عبـثاً ولا يدور تفكيرهم شططاً على نحو مـا فعلوا فى حدث الإسراء والمعـراج عندما انشغلوا بالخلاف حـول ما إذا كان قـد تم بالروح فقط أم بالـروح والجسـد ، بينمـا كان عليـهم أن يجهدوا أنفـسهم لبيان الإنجاز الذى حـققه بالنسبة للرسـول بصفة خاصـة والإسهام الذى قدمـه لتبلغ الدعوة هدفـها النهائى بصـفة عامة ، وذلك حتى يتأكد فى اعتقاد المسلم أن هذه الرحلة الفريدة لم تكن من قـبيل الأحـداث العارضة التـى وإن نفع إثباتهـا فإن غيـابها لم يكن لينتـقص أو يخل . . بل هى من أحداث السـيرة الخطيـرة التـى تشكل مع غـيـرها من الأحـداث وحـدة صلبـة متماسـكة ، عليها وبها ينهض البـناء الإسلامى شامخاً متكاملاً ، وبتـخلف إحـداها ينفرط عـقدها جميـعاً ويفقد الصـرح عناصر ثباته .

وبعد ، فـإذا كان هدفى من هذا الكتاب هو بيـان الحكمة من

الإسراء والمعراج ، فإنه لم يخطر ببالى أن ما ارتأيته هو الكلمة الأخيرة ، إنما هو على نحو ما قاله الإمام الشافعى رضى الله عنه «رأى ارتأيناه ومن جاءنا بأفضل منه اتبعناه» .

ويبقى بعد ذلك أن لهذا الكتاب رسالة عاجلة وغاية محددة :

أما الرسالة فهى : أن يتحرى المسلمون الدقة فيما يكتبونه عن دينهم بصفة عامة وعن رسولهم بصفة خاصة ، حتى لا تسىء كتاباتهم إلى العقيدة - بغير قصد - وحتى لا يشوهوا سيرة أفضل وأكمل الخلق ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا .

وأما الغاية فهى : أن يتوقف الجميع فوراً ، ودون إشعار آخر عن ترديد الآراء السقيمة التى شاعت وذاعت كحكمة للإسراء والمعراج ، وهى فى حقيقة الأمر :

كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا .

مـراجع الكتـاب

١- القرآن الكريم
٢- تفسير الطبرى
٣- تفسير الزمخشرى
٤- تفسير الفخر الرازى
٥- تفسير القرطبى
٦- تفسير ابن كثير
٧- صحيح البخارى
٨- صحيح مسلم
٩- السيرة النبوية لابن هشام
١٠- الطبقات الكبرى لابن سعد (طبعة دار التحرير)
١١- زاد المعاد لابن القيم
١٢- فتح البارى لابن حجر
١٣- الاسراء والمعراج لمصطفى احمد الرفاعى
١٤- رسالة الاسراء والمعراج لعلى محمد شاكر
١٥- افضل منهاج فى اثبات الاسراء للشيخ عبدالله المراغى
١٦- فقه السيرة للشيخ محمد الغزالى
١٧- دراسات فى السيرة النبوية للدكتور عبدالشافى عبداللطيف والدكتور محمد جبر ابو سعده
١٨- خديجة زوجة الرسول للاستاذ طه عبدالباقى سرور
١٩- عام الحزن للاستاذ عبدالحميد جوده السحار
٢٠- الظاهرة القرآنية للاستاذ مالك بن نبى
٢١- الله يتجلى فى عصر العلم - ترجمة الدكتور الدمرداش عبدالمجيد سرحان
٢٢- احياء علوم الدين للغزالى
٢٣- العلم فى منظوره الجديد - سلسلة عالم المعرفة
٢٤- الدين فى مواجهة العلم لوحيد الدين خان
٢٥- المنقذ من الضلال للاستاذ الإمام عبدالحليم محمود
٢٦- رساله التوحيد للاستاذ الإمام محمد عبده
٢٧- الإيمان للدكتور على عبدالمنعم عبدالحميد
٢٨- تفسير جزء عم للاستاذ الإمام محمد عبده
٢٩- الإيمان لابن تيميه

رقم الايداع ١٠٩٩١ / ٩٥

أميرة للطباعة

عابدين – ت : ٣٩١٥٨١٧